أَحْمَد حميد الدّين

السَّيد أحمد محمَّد الشامي

إمام اليمن

أحمد حميد الدين

قدَّم لـهُ
أحمد محمَّد نعمان

قرَّظـه
عبد الرحمن الإرياني

مع إعترافات
محمَّد محمُود الزبيري

دار الكِتاب الجديد

الطبعـة الاولى ــ ١٩٦٥

بيـــان

هذا كتاب قـديم ، كتب قبـل اثنتي عشرة سنة ، اي سنة ١٩٥٣ ، حين كنت في معتقل « حجـة » ، آثرت نشره كما كتب ، لم أحذف منه شيئا ولم اضف اليه شيئا .

فيه كل مـا للامام احمد رحمه اللـه ، وليس فيـه شيء مما عليه ، ولقد جدّت امور ، وحدثت احداث ، لي فيها كلام طويل في كتب اخرى .

وسيثير هذا الكتاب خواطر شتى، ويفتح باب الصراع الفكري في اليمن .

فإلى المعركة يا حملة الاقلام !؟

١٩ | جمادي الاول سنة ١٣٨٥ هـ .

١٥ | ايلول ١٩٦٥ م .

احمد الشامي

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الامين ، وعلى آله الطاهرين ، والتابعين باحسان الى يوم الدين .

وبعد : فسأحاول في هذا الكتاب أن اجلو للناس معالم شخصية كبيرة ، تحكم شعبا عتيدا ، وتحتل مركزا مرموقا بين ساسة العرب وحكام المسلمين .

ولقد امترست الالسن والاقلام في تحليل صفات هذه الشخصية بما لا يشفى غلة ولا ينفع مؤرخا : فلعلي ـ وأنا اليماني الدار والنشأة والمذهب ـ استطيع أن أسهم بما يقر حقا أو ينفى باطلا !

وحينما اتناول حياة البطل العظيم جلالة الامام احمد ابن يحيى حميد الدين ايده الله ، لا بد أن أثير الكثير من الجدل والأخذ والرد ، فلن تمر عليها العيون مر الكرام ، ستتناول الاقلام والالسن الكتاب وصاحب الكتاب بضروب

من البيان ، وألوان من الآراء . وقد يقولون عن الكاتب ما لا يتفق واخلاصه وايمانه ، ولا يلتئم مع شعوره وضميره ، وقد يرتفع به البعض ـ من اهل اليمن ـ الى ما لا يستحقه من منازل التقدير ، وتلك سنة انسانية ازاء كل اثر جليل .

وانا لا اكتب هذه السطور تزلفا الى صاحب الجلالة الامام احمد أيده الله : لاقتنص منه جاها ، أو لاحافظ على منصب ، أو لافوز بأجر .. كلا فمثلي في ظروفه ومحيطه لا يلوى رأسه لتزلف وقد توارى كل خيال في فجر الحقيقة .

وتجردت عن زماني وكوني   وترفعت عن حياة الانام

انما اكتب عن رجل ، لو لم اكن تحت سلطانه لما زدت سطرا ولا نقصت كلمة .

ولو كان لقلم أي عذر في الصمت لكان لقلمي اكبر عذر ، فاني لم أسعد منذ اكتسحتني زوابع الثورة في جمادي الاولى سنة ١٣٦٧ هـ «مارس ١٩٤٨ م» حتى تحرير هذه السطور جمادى الاولى سنة ١٣٧٢ هـ « ١٩٥٣ م » .

---

(١) كتبت هذه المقدمه ولا ازال سجينا في «قاهرة حجة» وقد ابقيتها كما كتبت عظة وذكرى .

وها أنا في عزلتي على رأس جبل « حجة » أشيد بحقائق لم اجد بدا من اجلالها ، وأصور مجدا عرفته ولم أقو على جحوده (١) •

ولانه ليس في متناول يدي أي مصدر ارجع اليه فلم أكثر من الشواهد ، وقد اعتمدت فقط على ذاكرتي •

فمعذرة ان لم أف بعض المواضيع حقها، او لم استشهد بأمثلة وبراهين ، أو وجدت بعض الاخطاء في الاسماء والتواريخ وقد حاولت الاتقان جهدي •

ومن الاعتراف بالفضل التنويه برسالة نفيسة كتبها الاستاذ الاديب الشيخ احمد محمد نعمان وسماها «شخصية الامام الناصر » ، وقد اطلعت على بعضها منذ سنوات عندما كنت في معتقل «نافع» ، ولا أدري اين كان مصيرها ، وقد اعجبت باسلوبها وما تضمنته من تمجيد وتحليل لبطولة « الامام الناصر » ولمواهبه واخلاقه وكيف كان كل ذلك من اسباب تفوقه وتغلبه ، على مناوئيه •

وأخيرا لن يفوتني ان ألفت انظار ابناء اليمن الى أن نهضات الامم لا تقوم على مجهودات شخص ، او اعمال بطل ، مهما كان تفوق تلك المجهودات والاعمال ، بل والحكومة وحدها ـ اي حكومة ـ لا تستطيع ان تنهض بأعباء رقي الامة من جميع النواحي السياسية والاجتماعية

والعلمية والاقتصادية ، فلا بد أن تتآزر القوى ، ولا بد من تفاعل جهود الحكومة بجهود المواطنين ، ولا بد من شعور معظم افراد الامة بالمسؤولية العامة ، ثم لا بد من زمن يكفل نمو تلك النهضة وثروة تمولها •• واليمن اليوم تجتاز اخطر أدوارها التاريخية وقد وهبتها الاقدار رجلا ملء نفسه وملء الزمن ، فاذا آزرته الايدي العاملة ، وأيدته الافكار المؤمنة ، واعانته على اداء رسالته اعمال ابناء شعبه ، فسيثب باليمن وثبة مباركة ، فتحتل في وقت قصير مركزها اللائق بين الامم كأمة مستقلة في سياستها ، غنية بمواردها ، فخورة بماضيها ، معتزة بدينها وحكومتها وابنائها

وللاوطان في دم كل حر   يد سلفت ودين مستحق

حجة ١٠ | جمادى الاولى سنة ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م

احمد الشامي

المقدمة

للأستاذ أحمد محمد نعمان

تعتبر حياة العظماء وسير الابطال وتراجم الرجال مادة غزيرة للكتاب والادباء واصحاب الاقلام، يتناولونها بالدرس والبحث ، ويتوسعون فيها بالتحليل والتفصيل ، ويعتمدون عليها في تثقيف النشء وتوجيه الشباب ، ويتخذون منها عظة وعبرة لاولى الالباب ، ويغذون بها العقول ويهذبون بها النفوس ، ويستمدون الطريقة المثلى والقدوة الحسنة .

تلك هي الغاية مما تكتبه ايديهم وتخطه ايمانهم وتسطره اقلامهم ، وما زال المؤرخون والمترجمون في كل امة وفي كل عصر يولون تاريخ عظمائهم وقادتهم ورجالهم العناية الكبرى ويبدعون في ذلك ويتفننون ويجددون، لان الامم لا تحيا حياة صحيحة ولا تبنى بناء قويا شامخا الا اذا كثر ابطالها وتعدد رجالها .

وكيف تربي الامم عظماءها وتصنع رجالها وابطالها ؟ هل تكل الامر للطبيعة والقدر وتتركه للحظ والصدفة ؟ ام تقول لهم هذه هي حياة سلفكم وهذا هو جهادهم وتراثهم وتلك اخلاقهم وسيرتهم فترسموا خطاهم وسيروا على منوالهم وانهجوا نهجهم ، وكونوا خير خلف لخير سلف وانشدوا بلسان واحد :

لسنا وإن أحسابُنا كرمت   يوما على الآباء تتكل
نبني كما كانت اوائلنا   تبني ، ونفعلُ مثلما فعلوا
حتى نوازيهم على شرف   لا يبتغى من دونه حول

وان اليمن السعيدة ، كغيرها من الامم لها تاريخها وأمجادها وابطالها وفيها تراث كريم وكنوز غالية وثروة واسعة من الادب والتاريخ والثقافة والعظماء والابطال ومشاهير الرجال . وقد أتى عليها ما أتى على غيرها من أدوار الانحطاط والتأخر،وترك فيها الزمن كثيرا من النقائص والعيوب والعادات السيئة والجهل .

وبما ان اليمن قضت عليها اليوم تطورات الزمن وظروف العصر الحاضر وارتفاع الحواجز بينها وبين سائر الاقطار ، وقضت عليها ان تقتبس من حضارة العصر المادية والادبية كل ما فيه النفع والمصلحة ولا يتصادم مع تقاليدها وعاداتها، فقد كان من اول ما تأثر به اليمن واقتبسه في عهد المغفور له الامام يحيى بن محمد حميد الدين نظام الحكم في تشكيل الوزارات ومجلس الوزراء ونظام ولاية العهد والديوان الملكي ، وتأسيس المدارس الحديثة ، وادخال بعض العلوم العصرية، وبناء المستشفيات، ووسائل المواصلات، والصحافة والطباعة ، والارتباط بالدول العربية والاجنبية عن طريق المندوبين والممثلين الديبلوماسيين وارسال البعثات، واستقدام

الخبراء والمعلمين الفنيين، الى غير ذلك مما يتصل بكافة نواحي الحياة .

كل هذا كان في عهد الامام الشهيد رضي الله عنه، بصورة مصغرة، ولكنها اتسعت وتوطدت في عهد الامام الناصر حتى قوي نظام الحكم في عهده قوةلم تكن في عهد ابيه . فأصبح منصب رئيس الوزراء وقفا على سيف الاسلام الحسن دون منافس ولا معارض ، منذ قام جلالة الامام الناصر . وكذلك المناصب الاخرى ، كما ان نظام الديوان الملكي سائر في عمله دون توقف ولا معارضة ولم يتغير شيء مما اقره المغفور له « الامام الشهيد » ، وولاية العهد تطلق على الامير سيف الاسلام البدر كما كانت تطلق على الامام الناصر في عهد والده ، وهكذا سائر المصالح التي تعتبر جديدة على اليمن مجاراة للنظم العالمية .

ولما اقتضت سنة التطور ان تتقدم اليمن وتخطو مع الركب وتجاري الزمن وتمضي مع الوجود السائر فقد اصبح العالم يتطلع اليها كجزء منه ولبنة في بنائه وعضو من اعضائه ، لا يمكن ان تنفصل عنه أو تقطع احبلتها به ، لأن مصالح العالم كلها اصبحت متماسكة متشابكة يرتبط بعضها ببعض ، لا تستطيع امة من الامم ان تعيش بمعزل عن سائر العالم . لذلك كان لزاما على اليمن ان تثبت وجودها ، وتبرهن على انها قادرة على ان تساهم في بناء الكون وان

تضمن الامن والسلام والاستقرار في الجزء الذي تشغله من رقعة الارض . وان تكفل لسكانه الحياة السعيدة ، والعيشة الراضية ، وتخفف من مآسي العالم وويلاته ومشاكله فتستغنى بأمكانياتها ، وتضم الشاردين من ابنائها ، وتيسر لهم سبل العيش في وطنهم وتحتضنهم وتستثمر عقولهم وسواعدهم معا ، اذ لا يمكن لامة من الامم ان تعيش دون العقل والساعد فهما شيئان متلازمان .

وان من اهم ما يثبت به اليمن وجوده هو ان يجلو للعالم الصورة الحقيقية للرجل الذي يحكمه ، والرأس المدبر الذي يصرف اموره ، ويدير شؤونه ، والدماغ المفكر الذي ينير له سبل سعادته وهنائه ، والقائد الامين الذي يرعى مصالحه ويسهر على حقوقه ويحمى حماه، فقد قلنا ان اليمن اقتبست من حضارة العصر الحاضر الشيء الكثير مما ينفع ويفيد، وقربنا لذلك الامثال، ولكن ناحيةهامة لا تزال تنتظر العمل وثروة عظيمة تترقب الاستغلال وهي تاريخ عظماء اليمن وابطاله ورجاله . ان هذه الثروة لا تزال مطوية تحتاج الى نشر ، ومدفونة يجب ان تبعث ، وضائعة تفتقر للنشدان والبحث ، ومفتقرة مبعثرة ومن حقها ان تجمع وتنظم .

ان على رأس هؤلاء العظماء والابطال الذي يجب ان ينشر تاريخه ويقدم للعالم هو مولانا امير المؤمنين الامام الناصر للدين احمد بن امير المؤمنين المغفور له الامام يحيى

ابن محمد حميد الدين . وقد كان السيد العلام الاديب احمد ابن محمد الشامي الجواد السابق في هذا المضمار والرائد الاول في هذا السبيل اخرج للناس كتابه « الامام احمد » .

وهو يعتبر فتحا جديدا في عالم التأليف اليمني وتاريخ عظمائه وترجمة ابطاله. فقد صاغها بقلمه الشاعر وبيانه الساحر وكتابته الفنية ، واسلوبه الممتع ، وفكره المبدع ، صياغة تستهوي القلوب وتلذ الاسماع وترضي النفوس. ساعده على ذلك المجال الواسع الذي استمد من معانيه ذلك البيان ووقع على صداها غرائب الالحان واستلهم تلك القطع التي يتنسم القارىء منها روائح الجنان .

ان الامام الناصر هو نفسه فتح جديد لليمن في سيرته وخلقه وشمائله وسجاياه، بل انه فصل من فصول تاريخ الزمن لم تشهد اليمن في عهد امام من الائمة ما شهدته في عهده ولم يتحدث التاريخ اليمني عن مثله في سخائه وبره وعطفه ورحمته وتسامحه ولين جانبه، وسعة صدره، ورجاحة عقله، فاذا ابدع الكاتب وتفنن فانما يسطر ما تمليه روح الامام العظيم الذي يؤمن اليمنيون قاطبة بعظمته وعبقريته، ويؤمنون ببره ورأفته ، ويدينون له بالحب العميق والاخلاص المتين ويدعون لجلالته بطول العمر من صميم افئدتهم ومن اعماق قلوبهم وحنايا اضلاعهم واغوار ضمائرهم وسرائرهم .

وكلما تقدمت الايام بأبناء اليمن وتكشفت لهم الحقائق

وتصوروا الاشباح المخيفة وما يضمره لهم المستقبل ويخبئه لهم الغد ، ويتربص بـه الزمان عضّوا على ولاء « الامـام الناصر » بالنواجذ وازدادوا تعلقا وتمسكا، وتضرعوا الى الله بحفظه ورعايته وحمايته ووقايته .

ان « الامام الناصر » لو لم يكن من عظيم صفاته سوى التسامح لكفى ، لقد اتسع صدره لابناء اليمن جميعا فلـم يضق بواحد منهم حتى الذين عادوه وحاربوه، ولم يعرف من جلالته خلق التعصب ضد احد . وكادت العصبية المذهبية ان تذوب في عهده وتفنى لولا جهـلاء متعصبون لا يحسبون لوحـدة بلادهم حسابـا ولا يقدرون نعمة هذه الوحـدة السياسية للوطن كله والرابطة الاجتماعية بفضل تسامح هذا الامام وحكمته ونفاذ بصيرته وبعد نظره .

ان « عبقرية الامام احمد » قـد فتحت لأدباء اليمـن وكتابهـا بابا في الترجمة لم يفتح من قبل فليدخلوا من هذا الباب وليسلكوا هذا السبيل ، وليقدموا للناشئة حياة الائمة والعظماء والابطال بهذه الطريقة وذلك الاسلوب ، ولا يعيب الكاتب انه لم يخرج كتابه بالصورة التي تطالعنا بها المكتبات في انحاء العالم، فان الظروف التي احاطت بالكاتب، والمصادر التي حصل عليها تجعل له العذر عند المنصفين المتجردين مـن الاحقاد والاهواء .

لقد تعودنـا ان نقرأ التراجم مـن قبل وهي تكاد على

طولها ان تنحصر في تاريخ مولـد المترجم ووفـاته واسمه وسلسلة نسبه وتعداد شيوخه وتلاميذه والكتب التي درسها والاجازات العلمية التي حصل عليها ، مع استطراد الى بعض الاشعار والحكايات ، فلا نستخلص منها عظة ولا عبرة ولا منهجا في الحياة، ولا توجيها للعمل، ولا نستفيد من التراجم ما يساعدنا على تحسين الحال وتقويم المعوج او هداية الضال وارشاد الحائر . ولذلك فان طالب العلم في العصر الحـاضر يقرأ نفس الكتاب الذي كان يقرأ منذ خمسمائة عام او اكثر ويترسم في نهج الدراسة والكتب الدراسية نهج تلك القرون دون تجديد او اختصار او تهذيب ، لان التراجم كانت تنقـل للخلف ما كان يدرسه السلف، فيحاولون التقليد في كل شيء في نوع الكتب وفي طريقة التدريس وحتى الاوقات نفسهـا فاستمرت الحياة مدى هذه القرون على اسلوب واحد وطريقة واحـدة .

ان « كتاب الامام احمد » هي الترجمة الصحيحة التـي تتفق مع طموح صاحب الجلالة ايده الله وتجديده الـذي شمل نواحي الحياة كلهـا مما جعل اليمن تخطو في عهـده خطوات واسعة تعتبر طفرة بالنسبة لماضي اليمن القريب، لان الامام الناصر شجاع العقل شجاع الرأي شجاع الفكر، فكل شيء يرى فيه مصلحة بلاده لايقبل المعارضة فيه وكل مشروع مادي او ادبي يطمئن الى فائدته ونفعه لا يتأخر عن تنفيذه .

ولقد تأثر مؤلف الكتاب بروح الامـام الناصر ومضى فيها وهو يستشعر النقـد الهدام وقلمه يمشي خائفا يترقب ولقد قرأت هـذا الكتاب ووعيته ، وأشهد اني كنت خـلال القراءة اتوقع للمؤلف اكثر مما توقعه لنفسه، ودار في رأسي كل ما سجله آخر كتابه، فقلت في نفسي: لك الله ياسيدي !! أتريد مـن الناس ان يتجردوا عن فطرتهم وان يتخلوا عـن طبائعهم ، وينكروا غرائزهم وما ركب في نفوسهـم وامتزج بدمائهم وغار في اعماقهم؟ افتطمع منهم ان يؤمنوا بما آمنت، ويقتنعوا بما اقتنعت، ويهتدوا الى ما اهتديت ؟ ان كنت تريد ذلك فقـد طلبت المحـال وتعلقت بالسراب وطمعت في غير مطمع •

هوّن على نفسك يا سيدي ولا تبل بزيد ولا عمرو بعد ان قلت ما تعتقد ، وتحدثت عما تعلم ، وعبرت عما تنطوي عليه جوانحك ويرضاه ضميرك ، وينشرح لـه صدرك ، وتطمئن اليه نفسك ، ويفتيك به قلبك وقل ما قال الاول :

فليتـك تحلـو والحيـاة مريـرة
وليتـك ترضـى والانـام غضـاب
وليـت الـذي بينـي وبينك عامـر
وبينـي وبـين العالمـين خـراب
اذا صـح منـك الـود فالكل هـين
وكـل الـذي فـوق التراب تـراب

اين انت من الحكمة الخالدة السائرة « رضاء النـاس غاية لا تدرك » والله لو راقب المرء كل ما يقال فيه ويلمز به، وينتقد عليه لمات هما وقضى كمدا، ولو خشي انتقاد المغرضين وهدم الهادمين لما سجد لله رب العالمين، لقد حكي ان موسى عليه السلام طلب من ربه ان يقطع عنه ألسنة الناس فقـال : يا موسى ! هذا شيء لم اطلبه لنفسي فكيف اطلبه منك •

وهذا سيد الخلق صلوات الله عليه وعلى آله كان يضيق احيانا من تشكك الناس في الوحي فيتردد في تبليغهم ايـاه خشية تكذيبهم وعدم ايمانهم وتصديقهم، فيخاطبه الله معاتبا « لعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » « أفأنت تكره الناس حتى يكونـوا مؤمنـين » ، « وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » •

الناس هم الناس في كل زمان ومكان ! فـذو الرأي الثابت المستقر ، وصاحب العقيدة الراسخـة ، والمؤمن بمـا يقول يمضي في طريقه كالسهم لا يلوى على شيء ولا يحسب للهدامين حسابا ولا يقيم لهم وزنا ولا يخطرهم على بال بـل يتركهم وشأنهم ، فهو مجتهد في صنعه متفرغ لعمله جاد في اتقانه ، والمجتهد لا يعدم الجزاء ولو اخطأ •

حقا ان الذي يحز في نفس المرء ويؤذيه اشد الاذى ان يعيش في مجتمع لا يتقن بناء شيء ولكنه يتقن هـدم كل شيء• تحكمت في طباع بنيه السخرية والاستهزاء، وتمكنت

في نفوسهم دواعي الحسد والكراهية والبغضاء ، والكاتب لا يلام اذا توقع سخط الكثيرين ولمز المغرضين لانهم لا يحسون احساسه ولا يشعرون بشعوره ، ولا ترتبط عواطفهم بعواطفه ، ولا يدينون بالولاء الذي يدين به ولا يؤمنون الايمان الذي يتحكم في مشاعره ويسيطر على دمه وعقله وتفكيره، فهو وحده الذي يعرف انجلالة الامام الناصر سالمه والناس يحاربونه ، وآواه الى كنفه وهم يطاردونه ، وملأ قلبه أمنا واطمئنانا وهم يتوعدونه ويرهبونه .. وصنع معه اعظم من ذلك كله وهو انه وهبه الحياة وهم مجمعون على ان يقتلوه .

ألا إن من أخْوَن الخيانة ، وأقبح القبح ، وأشنع الجحود ، وأبلغ الكفر ، ان يتردد المرء أو يحجم عن انصاف من احسن اليه وأولاه الجميل وصنع معه المعروف وغمره بالبر والاحسان .

ان السيد « الشامي » لم يكن قد ادى لما كتب بعضا مما يجب عليه، ومما يجب على كل من غمرهم ما غمره من عطف الامام الناصر ورأفته ورحمته، وكل من وسعهم ماوسعه من حلمه وصفحه وكرمه . افيبلغ الحمق والغباء بالهدامين والمغرضين ان يصموا كل من شكر احسان « الامام » بالملق والنفاق ؟ تالله لقد فسد المنطق واضطربت الموازين واختلت القيم .

وبعد فلن نستجيز لانفسنا صرف القراء عما أردنا ان نقدمه لهم ، فان مؤلف الكتاب لم يعرضه علينا لكي نشتغل بالحديث عن انفسنا ، ونغتنم الفرصة لمصلحتنا . ولكنه أرادنا على ان ندرس كتابه ونقول فيه كلمة الحق ونبدي رأينا بصراحة تامة .. واظنني قد ابديت رأيي وقلت ان كتاب الامام احمد يعتبر فتحا جديدا في عالم التأليف اليمني وانه مستوحى من المعاني الرفيعة لتلك النفس الكبيرة والعبقرية الفذة والبطولة النادرة والشخصية العظيمة لجلالة الامام الناصر، اعز الله ببقائه الاسلام وشد عضوه بولي عهده وحقق بهما الآمال .

فالى ابناء اليمن خصوصا وابناء العرب والاسلام عموما اول مؤلف يمني من نوعه، يضم سيرة بطل من ابطال الاسلام وعظيم من عظمائها، وكنز من كنوز الامة الاسلامية، ومفخرة من مفاخر العرب

الحديدة   ربيع الاول سنة ١٣٧٤ (١٩٥٤)

احمد محمد نعمان

في عالم ان السيف اليمني وانه مستوحى من المعاني الرفيعه
لتلك النفس الكبيره والعبقرية الفذه والبطولة النادره
والشخصيه العظيمه لجلالة الامام الناصر اعزه الله بنصره
الاسلام وشد عضده بولي عهده ومتع به الاوطان .
فالى ابناء اليمن خصوصا والى ابناء الاسلام دار الاسلام
عموماً اول مؤلف يمني في موضوعه ليتم سيرة بطل
من ابطال الاسلام وكنز من كنوز الامه الاسلاميه
ونموذج من مفاخر العرب وعظيم من عظمائها .

الحديدة — ربيع الاخر ١٣٧٣ (١٩٥٤)

احمد محمد نعمان

طبق الاصل

---

١ ـ نهاية مقدمة الاستاذ نعمان . نقلت طبق الاصل وقوبلت .

تمهيـد

ما هو مقياس البطولة ؟ :

تناولت الاقلام والالسن الجواب على هذا السؤال الخطير ، فلونت بيانها فنونا ، وفننت ابحاثها الوانا ، ونستطيع ان نرجع شوارد تلك الابحاث الى محيطين لا يزالان مرجعي كل خلاف ، ومصدري كل صراع .

المادة . والروح

فالماديون ـ وهم الذين لا يؤمنون الا بالمحسوسات العقلية ـ لا يقدرون الا سلطان المادة ، ولا يخضعون الا لطاقتها ، ويعللون كل قوى الوجود بعلتها ، ولا يقيمون وزنا الا للكم وتفاعله تفاعلا ماديا بحتا .. هؤلاء يسخرون بالقيم والمثل ، ولا يعترفون بفاعليتها في الحياة ، ويقدسون القوة الحسية ، بل ويعللون حتى ما يسمى بالقيم الروحية بعلل تتفق مع وجهة نظرهم ، وتلتئم مع طرق تفكيرهم .

والروحانيون ـ نراهم في الطرف الآخر يشيدون بسلطان الروح، وعظمة العقل المجرد، ويعطونه صفات الخلق والابداع ، وايجابية التكوين ، والمادة عندهم عرض زائل ،

وحلم باطل .. هؤلاء ينكرون ايجابية المادة ، ولا يعترفون لها بفاعلية في الحياة ، ويلهجون بالمثل ، بل ويحللون المادة تحليلا روحانيا يجري مع نظريتهم في عناصر الحياة الايجابية .

ومقاييس الحياة بشتى اشكالها — ومنها مقياس البطولة البشرية — تتأرجح بين الفريقين ، فمنهم من يرتكز بها في وحل المادة ، ومنهم من يبلورها في تيار الروح .

ولعل الحق لا يدور مع احد من الفريقين ما دام متحجر قاصرا نظره على محيطه ، ومن حبس فكره في نطاق ضيق ، فأجدر به ان لا تتكشف له معالم الحياة ومشاهد الكون الفسيح . والوجود الكبير ، اعظم من ان يجسّد بعين واحدة ، واذن فلا الماديون المتحجرون وحدهم على صواب ، ولا الروحانيون المغرقون وحدهم على صواب ايضا ، والقوى الكونية وليدة عنصرين متفاعلين هما المادة والروح فمن قصر نظره على جهة واحدة ولم يقم للناحية الاخرى وزنا فقد تحجر واسعا . وغاية جهد الباحث العميق النظر ان يقرر ، ان أثر الروح اسمى واقوى من أثر المادة ، لانه هو الجانب الحيوي الخالد « والقول بالمادة اهبط من القول بالعقل » كما قال بعض المفكرين المحدثين .

وهذا الموقف الوسط ليس بدعا اختلقناه ، أو جئنا به من تلقاء انفسنا ، فذوو الالباب دائما هم « الوسط بين

الطرفين المتناقضين» ، وقديما قال ارسطو طاليس « الفضيلة وَسَطٌ بين رذيلتين » . ولم تستطع أي فلسفة ان تبدل هذا القول ، بأحسن تفصيلا وادق تحليلا ، بل قد جاء في الاثر « خير الامور اوساطها » . وانه ليؤيد ذلك ويثبته ، بل هناك ما هو اسمى واعظم واجل وأحكم .. هناك وصف قرآني معجز للامة المسلمة « وكذلك جعلناكم أُمة وَسَطاً لتكونوا شهداء على الناس » ، و«الوسطية» هنا تشمل وسطية الزمان والمكان ، والعقيدة ، والتفكير ، والتنظيم ، والتنسيق وشرح ذلك يطول فتأمله جيدا .

وحين نعود الى موضوعنا ، ونريد ان نسبر البطولة بهذا المسبر ، لا نغلو في التجرد الروحي، فلا نجد الا اولئك الذين فنوا في روحانيتهم ، وعاشوا عيشة العقل المجرد ، وكان همّ عملهم وتفكيرهم تحقيق السعادة النفسية البحتة في عالم غير هذا العالم ، ووجود غير هذا الوجود ، كما انا لا نغلو في الارتكاز المادي فلا نجد الا اولئك الذين يريدون أن تفنى الامم لتبقى اشخاصهم ، ويقطعون اشواط الحياة جبارين يقهرون الناس ، ويتغلبون على ما في ايديهم ويجترفون في سبيل تحقيق مطامعهم كل حاجز ، ويكون المال والسيف نسب الفرد منهم وحسبه، وغايته الحكم والسلطان، ولا شيء غير الحكم والسلطان .

وقد جاء في القرآن الكريم :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا ، وأحْسِنْ كما أُحسنَ الله اليك » ، وجاء عن النبي صلى الله عليه وعلى اله وسلم « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » •

وعرفنا من دراسة التاريخ ان الذين لا يسرفون ولا يقصرون هم دائما الفائزون ، والعقول السليمة ، والقوانين الحكيمة ، والشرائع الالهية ، ترشد الى ذلك ، بل وتحتمه على بني الانسان •

واذن فمقياس البطولة ـ عندنا ـ ثبات الاخلاق ، وصلاح العمل ، وقوة الارادة ، ونفاذ الفكر ، والسمو عن صغائر الحياة قولا وعملا ، وها هنا تطيح في كفة الميزان تلك النفاخات الوهمية من اعمال الطغاة والسفاكين الذين لم يعدموا من يشيد بذكرهم ، ومن يسميهم عباقرة وابطالا . ولكن سنة الله تغمرهم مهما تمادى بهم الباطل • فأما الزَبَدُ فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » •

من هو البطل ؟

سهل على القارىء ان يحدد حقيقة البطل بعد أن يفهم مقياسنا للبطولة ، وقد لاحظنا فيه الجانب العملي ، والجانب الخلقي ، فالبطل هو من ظهرت فيه صفات البطولة المذكورة ، وكانت له شعارا فيما يأتي وما يدع ، وهو بذلك حركة

اصلاح دائبة ، لا تبرح تهدم فاسدا ، أو تشيد صالحا ، أو تنهي عن منكر ، أو تأمر بمعروف ، أو تدعو الى هدى ، أو تحارب ضلالا ، أو تنصر حقا أو تخذل باطلا (١) •

والابطال هم مصابيح الانسانية ، وهم زعماء النهضة في كل أمة ، وهم في امتنا الاسلامية ، الائمة المجددون ، الذين يبعثهم الله في مقطع كل قرن احياء لدين الله الحق ، وبعثا للسنة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام ، كما ورد في بعض الآثار ، وكما هو مشاهد في سير التاريخ الاسلامي الطويل •

ومن هو بطلنا اليوم ؟

لعل هذا التمهيد الموجز قد أفضى بنا الى المسلك المقصود من بحثنا ، فلننفذ اليه على ضوء ذلك القبس المشرق بنور ذلك المقياس الانساني ، وسنجد في طريقنا هياكل ابطالنا الخالدين ، والعباقرة من ائئمتنا المجددين • فلنتحسس جوانب عظمتهم ، واحدا واحدا ، والخشوع يملأ صدورنا ، والاجلال يأخذ بمجامع قلوبنا ، ولنقف وقفة قصيرة عند اقربهم الى نفوسنا ، وألصقهم بحياتنا ، صاحب الجلالة الامام احمد بن يحيى حميد الدين •

(١) كل ذلك هو روح الدعوة الاسلامية، وهو سر «الامامة» وقوتها وخلودها في اليمن (المؤلف)

وسنلزم اقرب الطرق الى نفس القارىء فلن نتوسع في سرد الحوادث ، ولن نستقصي في ذكر الحقائق ، ولن نحاول التأنق البياني ، فان لكل ذلـك أمكنة اخرى من منشئاتنـا المقبلة ان شاء اللـه .

شخصيَّة الإمام

تتكون شخصية البطل من مواهب فطرته ، ثم من عوامل بيئته ، ثم مما يكسبه بالتجارب من خبرة ، ومعرفة، ودربة ، ثم من الفرص التي يتيحها الزمن لبعض المصطفين ، فيحسنون اهتبالها ، ولا يفرطون في اغتنام سوانحها •

وشخصية البطل ، هي الاطار النوراني الذي يضفي على صورته أشعة القداسة، والجلال، وهي الطفاوة الآلاهية التي تكتنفه فتحببه الى القلوب ، وتملكه اعنة الاهواء ، وهي العنصر السحري ، الذي يكبر المواهب الفطرية ، ويكسبها رهبوتا وجمالا في وقت معا ، وهي وراء ذلك كله ، ومع ذلك كله ، كيان البطل ، الذي به يصول ، وبه يطول ، وبه يسيطر على الجماهير ، ويحكم الناس ، ويؤثر في مجتمعهم •

وكل من اتصل بجلالة « الامام احمد » ايده الله يقدر تلك « الشخصية » المحبوبة ، الموهوبة ، المسيطرة على القلوب ، المؤثرة في النفوس ، وقد يحار ، وتضطرب افكاره اذا حاول ان يحللها، أو يشرحها، قبل ان يكتنه اسرار فطرتها، ويعرف حقائق ماضيها ،ويدرس موجز نشأتها وبيئتها،ويطلع على ما ينطوي عليه ذلك القلب الكبير ، وكل ذلك قد تهيأ لكاتب هذه السطور ، فقد عرف هذه « الشخصية » الفذة معرفة كلية ، في رضاه وغضبه ، في سفره وحضره ، في جده وهزله ، وأشرفت على عوالم مواهبه الجليلة فاكتشفت من

معالمها ما لم يتيسر الا للقليل •

وليس هذا اني قد اكتنهت كل مواهب تلك الشخصية الفذة ، فأبطال التاريخ هم دائما موضوع بحث الناقدين ، وكتاب السير ، وأي كاتب استطاع بما يكتبه عن عظيم من عظماء الامم ، ان يغلق الباب دون كل كاتب ، فان الله سبحانه ، يودع في تلك الشخصيات من الحقائق الانسانية الكبرى ، ما يظل ينبوعا ثرا ، تغترف منه الاقلام والالسنة ، أوكارا ومعاني ، في كل عصر وطور ، وهذا هو سر تعدد الكتب عن الابطال • وهل انتهى الناس من تشريح شخصية الامام علي بن ابي طالب عليه السلام ، أو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أو الامام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام ، أو السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله ، او سائر ابطال التاريخ الاسلامي ، وابطال التاريخ الغربي والشرقي على العموم ؟

كلا ••• فان الاقلام ستظل تمتح من تلك الينابيع ، وستبقى الالسنة تغترف من تلك البحور ، ولكل نزعته ، وفنه ، وبيانه ، وتلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا •

مفتاح شخصية الامام احمد هي « الفروسية » بصفاتها التي تميزها ، واهمها النبل ، والشجاعة ، والثقة بالنفس ، وقوة الارادة ، والنفاذ في الامور •

فهو نبيل : لأن شجاعته تأنف من أن تحتقر ضعيفا ، أو تتغاضى عن منكوب ، أو تستهين بكريم ، او تسخر بمهزوم ، حتى ولو كان من اعدائه الذين مضغ الشوك والجمر في سبيل مغالبتهم ، ومدافعتهم •

ونبله يوفر فيه تلك الصفة الالهية السامية التي كان يتصف بها الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهي صفة « الحياء » ، وكم شاهدت له مواقف يقف فيها مع من تجنى عليه ، أو اتهمه بذنب يخصه ، أو جاء مستغفرا من زلة ، او هفوة صدرت منه اليه ، وكأنه هو الجاني ، وكأنه هو المستغفر، فلا يكاد يقر نظره في وجه هذا المذنب التائب، والجاني المحروب ، كل ذلك حياء ، وتقديرا للعواطف الانسانية ، التي يشعر بجيشانها في دم ذلك المسكين ، وكم احرجه الملحون في مسائل لا تلتئم مع ما يرتضيه ، ويصبو اليه ،

وليس في هذا ما ينافي قوة ارادته ، لانه لا يقف تلك المواقف ، الا أمام ما يخصه ، ويتصل بشخصيته ، أما في جانب الحق وأمور الرعية ، والواجبات الدينية فهنا تظهر صرامته التي لا تفل ، وها هنا ترى الميزان العادل ، والحكم المنصف ، وتسمع كلمة الحق الصارمة ، التي لا تحابي قرابة، ولا تخشى عاقبة ، ولا تراقب الا سلطان الشرع الحنيف •

والشجاعة : هي لبّ الفروسية ، وهي ايضا مصدر كثير

من الخلال العالية ، كالكرم ، والتغاضي ، والحلم ، والعفو ، والاباء ، والصبر ، ••• وهي ابرز صفات « الامام احمد » ومواقفه الحربية المشهورة ، تنبىء عن مبلغ شجاعته ، واقدامه ، واحتقاره للموت ، ولقد بلغ بمن شاهدوه في المعارك الحامية وهو يعتنق المنايا السود دون خوف او خور ـ ان يعتقدوا بأن الرصاص لا يخترق جسده ، وان السيوف لا تؤثر في جسمه ، ويعبرون عن ذلك بلفظة « مصرف » وما دفعهم الى الايمان بهذه الحقيقة ، الا اقدامه الجبار الذي لا تتحمله الجهود البشرية ، وكرمه الطائي ، وحلمه عن الجاني ، وعفوه الواسع ، واباؤه اي ضيم ، وصبره على الخطوب الكبار ، كل اولئك تنبىء عن شجاعته ، وأثارها ملموسة عند كل فرد من افراد الشعب اليمني •

والثقة بالنفس : خاصة لا تفارق البطل ، بل لا قيمة للرجولة ان لم يغمرها هذا التيار الجارف ، ولقد قال الشاعر :

وانما رجل الدنيا وواحدها
من لا يعول في الدنيا على رجل

وقد لمست عن كثب، ثقة بطلنا بنفسه، وعرفت مقدارها، ومن يره وهو يباشر الاعمال ـ حتى الشاق منها ـ بيده دون ملل ، ولا ضجر، ولا شكوى، ومن ير سروره وابتهاجه حين يقوم بالاعباء الجسام ، فينفذها كما يتطلبه الكمال ،

ومن ير بسمته الهادئة الظافرة ، حين يلوح بها في وجه الكوارث الفاجعة •• من ير كل ذلك يعلم مقتنعا ان ثقة بطلنا بنفسه لا تجارى •

وقد كتب اليه احد ادباء صنعاء سنة ١٣٦٦ هـ • (١٩٤٦) م• يهول عليه امورا مقبلة بنذر ، ووميضها بما تحت رمادها، وجسّم له ظلمات المستقبل في كلمات لو تجسدت ، لكانت صواعق تبيد الحرث والنسل ، فما كان أشد دهشة الكاتب ، بل ودهشتنا جميعا حينْ عاد جواب بطلنا مقتصرا على المثل « لبِّثْ قليلا يتبعَ الهيجا حَمَلْ » وما أروعه من استشهاد ، يدل على ثقة بالنفس كبيرة ، لا تثبت امامها صعوبة ، ولا يعرقل اقدامها هول ، ولا يفوتها مدى •

واذكر ايضا ، اني كتبت الى جلالته من صنعاء رسالة مطولة في شهر ربيع الاول سنة ١٣٦٧ هـ • (١٩٤٧) م• صورت له فيها الحالة الخطرة التي كانت تكتنف المجتمع اليمني حينذاك ، وما عسى ان تأتي به الايام من مفاجئات ، ولا أزال مستظهرا لبعض جوابه علي نصا :

« ووالله انه لن يتم لاعداء الدين شيء ، ان لي من تمسكي بكتاب الله ، ما اتقى به الاحداثا •• الخ » • ولقد اكبرت تلك الروح ، ومجدتها ، واجبت على بطلنا بما يشعر بتقديري لهذه الثقة الجارفة ، وعرضت الكتاب على شخص

كبير ، فقال : « ان هذا لا يُغلب » ثم استشهد يقول الشاعر :

اذا هَمّ القى بين عينيه عزمه   ونكّب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يَسْتَشِرْ في امره غير نفسه   ولم يرض الا قائم السيف صاحبا

ولم يمض شهر حتى هاجت الفتنة العمياء تعصف زوابعها بكل ما في سبيلها ، ولكنه ثبت لها ، وقهرها ، واتقى احداثها ، وخرج من بين انقاضها ظافرا •

ولو ذهبت اسرد ما يُوضح تلك الحقيقة لما احتملت هذه الصفحات القليلة براهينها •

وقوة الارادة :

الارادة هي المعنى الحديدي الذي لا يتحطم ، والمريد قوة مندفعة ، لا تعرف يمينا ولا شمالا ، ولا وراء ، وانما تمضي قدما أمام أمام ، وحظ الفروسية من العبقرية والتفوق بمقدار حظها من هذه القوة الهائلة ، ومن ذلك المعنى الحديدي • بل ان البطولة مع ضعف الارادة جوفاء تنهزم امام اي صدمة مفاجئة ، ولذلك فهي تدور معها ، ولا يعد البطل بطلا بدونها ،

و «الامام احمد» تتجلى فيه قوة الارادة بكل مظاهرها وقواها ، بل هي في رأيي ، ابرز صفاته ، ولم يمتنع عن اعدائه، ومحاولاتهم لهدم عظمته، الا بقوة ارادته• ولقد كان

خصومه اقوياء، وكانوا يملكون من الوسائل المادية مايمكنهم من القضاء عليه — لولا تلك الطاقة الرهيبة «قوة الارادة» — اندفعت من قلبه تيارا ملتهبا ، فجرفت البقاع ، والتهمت الاجواء ، وسرت في الاعصاب نارا ، وفي العروق ضرما ، وخلقت من تلك الكائنات الحية قوى غريبة مسخرة تكتسح كل ما أمامها ، واذا بالقصور تتهاوى ، واذا بالقلاع تتساقط، واذا بالاسلحة تجمد في الايدي ، واذا بالمستحيل يتحقق ويمثل للاعين ، واذا « بالسيف احمد » الوحيد يتربع على العرش ، ويحمل التاج منصورا •

وكم له في تاريخ حروبه ومغامراته من مواقف قد صورتها في تائيتي الكبرى ، فقلت :

وكم ليلة اقعى بها الهول، وارتمى   بها الشر اعمى من ضلال ورهبة
تضل النجوم الزُهْر فيها طريقها   فتخبط في بهماء وخوف وحيرة
ويزوَرّ عنها الافق رعبا فينطوي   بأعماق بحر من ظلام ووحشة
أضاء دجاها بائسة، فأحالها   نهارا، وأذكى فجرها بالعزيمة
وطار الى مايبتغي فوق هولها   وكانت له ميدان لهو وسلوة

***

وربة قفرٍ مجدب الدوّ خاضه   وصارمه مصباحه في الدجنّة
تفر الضواري حين تسمع خطوه   ويرجف ذعرا كل صخر وصخرة
وتطوى لهطوعا مجاهل بيدها   وتذعن اذعان الرقاب الذليلة
ونال مناه والمكاره حوله   تضرب صرعى كالسخال الذبيحة

***

وربة يوم يشرب القيظ ريحه   فليس ترى فيه خيالا لنسمة
يصلي له ضب الهجير ضراعة   ويخطر فيه الموت من كل بقعة
تجشمه في ركبه غير عابئ   بأهواله ، أو بالأوار المفتت
وعانق ما يهواه غير مذمم   ولا سالك الا سبيل المحجة

***

وكم موقف كانت مخالب عزمه   مفاتيح نصر في اكف المنية
كأن ضجيج الحرب يوم انتصاره   اناشيد غول أو تهاويم جنة
اذا شامت العقبان برق سيوفه   توالت على الاشلاء من كل وجهة

هو الموت ، أو تأوى الى رشدها النهى
هو الخوف او ترعى حقوق الشريعة
سلوا عنه « خولان الطيال » « وحاشدا »
و « نجران » واستفتوا معالم « صعدة »
وتلك رمال البيد تشهد انه
اعز فتى لم يخش طغيان محنة
أقام على « حرب الزرانيق » صابرا
الى ان عنت في اسره واستذلت .. الخ

والنفاذ في الامور :

طابع الفروسية الخالد ، وفي حياة الابطال ساعات تتركز على ثوانيها دعائم مجدهم ، واركان بطولتهم ، هذه الساعات الزمنية، لا يجنون ثمرات نصرها الكبير، الا بنفاذ

عزائمهم ، ومضاء اراداتهم ، وقد تفوت الراغب فرصة لا يكون عندها نفاذا فتحمله اوزار تاريخ ألم طويل ، واذا كانت الفرص لا تتكرر ، فان الخور امام اول سانحة منها ينزل بالمرء ما يتلاشى به أمره ويسوء مصيره .

ومن يدرس تاريخ الانسانية ، ويراجع وقائع ابطال التاريخ ير أن الفائزين منهم، هم الذين لم يضيعوا السوانح، ولا غفلوا عن اهتبالها ، ويرى ان اكبر الغلطات لم تنشأ الا عن تساهلهم ، وعدم نفاذهم ، واذا كان المثل المشهور « رب عجلة تهب ريثا » صادقا بالنسبة للمتهورين فان سجل التاريخ العام يحفظ حكمة عظيمة ، وحقيقة كبرى لامراء فيها ، وقد ضمنها اديب يمني كبير في قوله « رب لحظة تلد تاريخا » .

وهذه اللحظات التي تلد تواريخ الامم ، هي عتاد الابطال ، وهي فرصهم التي ان اهتبلوها فازوا ، وان اهملوها ماتوا .

وقد عرف الناس «الامام احمد» نافذ القول والعمل، كما قلنا سابقا :

اذا هم القى بين عينيه عزمه
واعرض عن ذكر العواقب جانبا

وسيمر بك عند ذكر حوادثه الحربية ، ما يطلعك على

توفر هذه الصفة فيه • ولولا مضاء عزمه ، ونفاذ ارادته في حرب « الزرانيق » ، تلك القبيلة العاتية ، لما تيسر فتحها بتلك الصورة الرائعة ، بعد ذلك الجهاد المرير •

ولقد اعترضت « الدولة المتوكلية » مشاكل عويصة، كان الفضل في الخلاص من تبعاتها ، راجعا الى البت الجازم ، وكان مصدر البت في جل المواقف بطلنا العظيم ، اذ كان في الحقيقة ساعد ابيه الاقوى ، ومعتمده الامين •

وها نحن نراه قد نفذ كثيرا من المشروعات العمرانية الخطيرة ، التي ظلت الحكومة من قبل تتخوف من البت فيها زمنا طويلا •

وها نحن نراه يسير عجلة النهضة اليمنية الحديثة ، بحكمة واتزان ، ونفاذ ايضا ، وهو في موقف تاريخي حرج يتطلب منه الحيطة ، والحذر ، فكثيرا ما تكون فترات التحول في تاريخ الامم ميادين مآس وانهيار ، واقسم لو ان جلالته قد وجد الايدي المخلصة ، التي تنفذ ما يريده لشعبه من خير بأمانة ، وبلا اطماع ، ولا انانية ، لما تريث في اي مشروع عمراني ، وكثيرا ما سمعه الناس ينشد متأسفا :

اني لأفتحُ عيني حين افتحها   على كثير ولكن لا أرى احدا

وانه لعلى حق في استشهاده ، وتلك هي المشكلة الكبرى •

ولولا ان الله قد حفظ لهذه الامة هذا البطل العظيم، لمثل هذا الموقف ، لتغيّرت بنا الحال ، ولقد لاحظ ذلك صاحب الجلالة نفسه ، فكرس جهودا جبارة تساعد الامة على التخلص من هذه الفترة بسلام وامان ، وهيأ لها الجو الملائم ، فاطمأنت الخواطر الى المستقبل ، وسيسجل له بذلك افخم صفحة في تاريخ اليمن ، ويكون هو خالق اجيال النهضة في المستقبل ، بما هيأه لها من ظروف ، واحوال ، وملائمات شتى داخل البلاد وخارجها •

واذا ما انتهينا من هذا العرض الموجز لبعض مظاهر البطولة البارزة في شخصية « الامام احمد » فلنذكر القارىء ، بانا قلنا في أول الفصل ، ان شخصية البطل تتكون من مواهب فطرته ، ثم من عوامل بيئته ، ثم من التجارب ، ثم من الفرص التي يهتبلها ، وها قد شرحنا بعض اخلاقه الفطرية ، وطبائعه الاصيلة ، وبقي ان نجول بالقارىء في مسرح البيئة التي نشأ فيها بطلنا العظيم ، ملتزمين جادة الايجاز ، والقصد والاختصار •


نشأة الإمام

يعلق علماء النفس على تربية المرء الاولى ، مستقبل حياته ويحسبون لها حسابا كبيرا ، بل ويعللون تصرفات الانسان وجميع اعماله ، بعوامل ودوافع نشأته الاولى ، ومؤثرات بيئته التي ترعرع فيها • وقد يصبغون ثقافته وتجاربه بلونها، ويقولون ان الانسان يظل مقيدا بسلاسلها، متأثرا بآثارها ، مندفعا بقواها ، مهما ابتعد بمحيطه الجديد ومعارفه الحديثة عنها ، فانها تتناول عواطف المرء ، وغرائزه وهي لا تزال بيضاء نقية ، فتطبعها بطابعها من خير او شر ، من ضلال أو هدى ، من نور أو ظلام •

ومهما يكن الامر فان المشاهد المحسوس ان الانسان لا بد ان يبقى طيلة حياته متأثرا بعوامل بيئته الاولى ، سواء شعر بذلك ، ام لم يشعر ، أقر بذلك او انكر ، عرفه الناس ام لم يعرفوه ، وان الباحث النفسي الحبير ، ليستطيع ان يستخرج ماضي الانسان من حاضره ، ويحكم على نوع نشأته من اعماله اليومية ومن حركاته واحلامه وخواطره ، ومن اسلوبه الذي يتناول به الحياة ، وعن فلتات لسانه ، وخوالج نظراته •

ولست بعالم من علماء التربية ، فأتوسع في شرح الموضوع ، وأبين اسبابه ، ولكن موقفي كمؤرخ لانسان يتطلب مني البحث عن كل المؤثرات فيه •

واذن فلنتساءل ، ما هي البيئة المؤثرة في شخصية

« الامام احمد » وما علاقتها بذلك الجلد ، والصبر على الشدائد ، ومقارعة الخطوب ، والخشونة التي لا تبالي بالحر ، وان كان يرفض نارا ، ولا بالقر وان كان يقطر موتا ؟ وما نصيب صرامته ، وقوة ارادته ، وثقته بنفسه ، وكرم خلقه ، وسعة صدره من نشأته الاولى ؟ وهل نشأ كأبناء الملوك والامراء في احضان الترف والنعيم والتدليل؟ ام بين مخالب القوة ، وانياب الفتوة ، وساحات الحروب ؟ وهل رفت عليه الحياة كأنسام الورد ناعمة رطبة ندية ؟ أم لفحته بتيارها الجارف ، وعواصفها الغضاب ؟ .

ولن اتجشم المشاق في بحثي فاستنتج خيالا واضرب بالقول جزافا .. لأني من اعرف الناس ببيئة «الامام احمد» واقربهم اليها ، ولقد ظللت سنين طويلة استمع الى والدي السيد العلامة الجليل عبد الرحمن بن حسين الشامي حفظه الله ، وهو من اقطاب تلك البيئة ، وممن شارك في تربية « الامام احمد » ـ وهو يحدثني عن تلك الحياة وظروفها ، وسمعت عن عمي السيد العلامة حسن ابن محمد الشامي رحمه الله ـ وهو زميل بطلنا وتربه وصديقه في شبابه ـ يصف لي مشاهد تلك البيئة ، ويصور لي معالمها .. بل انا نفسي نشأت بين أسرة عاش اكثرها في تلك البيئة ممتزجين بأسرة بطلنا العظيم ، فاذا تحدثت عنها فلن احكي الا ما اعلمه يقينا لا خيالا واستنتاجا شأن الكثير من الباحثين ،

الذين يقف بينه وبين براهين ما يدرس القرون المدفونة تحت اكداس النسيان ، ولقد ترى الباحث منهم وهو يستنبط من النص الغريب والكلمة النادة ، والقصة الغامضة حقائق يحشو بها كتابه مزخرفا منسقا ، فتتقبله الافكار ، وتتلقفه الاسماع ، ويسمونه بحثا ودراسة وتحليلا .

ألا من كان يستوحي الخيال ، ويستنطق الآثار في ابحاثه ، وتحاليله ، فاني لا ألفظ الا بحقائق علمتها أو رأيتها ، ومعارف وعيتها أو شاهدتها ودليلي عقلي لا خيالي، وسندي من لا يضعف ولا يوهن .

اولئك آبائي فجئني بمثلهم
اذا جمعتنا يا جرير المجامع

نحن الآن في سنة ١٣٠٧ هـ. (١٨٨٧) م. واليمن لا تزال تحت النير العثماني ، والفتن العمياء تنشر جلبابها الاسود على ربوعها ، وقد اصطلحت مصائب الارض ، والسماء على الفتك بها والعيث بساكنيها ، والهول يزحف فوق ارضها ، ويبث الرعب في نفوس اهلها ، وكل شيء ينذر بالدمار والموت .

وهناك في شمال اليمن ، وفي رؤس الجبال ، وبين المغاور والكهوف ، تأوى جماعة الهدى والحرية ، والخير يترأسها « امام زيدي » عاهد الله على الجهاد ، وانقاذ

البلاد من براثن الطغيان ، والظلام ، مقتفيا آثار آبائه الصالحين ، وأسلافه المجاهدين ، الذين ما زالوا في صراع مستمر مع شبح الحكم التركي عدة قرون ٠

وفي السنة التي تتكلم عنها ينشق فجر يوم رهيب عن صوت كئيب ينعي الى اليمن امامها المجاهد الصالح الامام الهادي شرف الدين رضي الله عنه ، ويملأ اسماع المواطنين بتقرير النخبة الصالحة من علماء الزيدية، وزعمائها المناضلين ـ اختيار السيد العلامة الجليل محمد بن يحيى حميدالدين اماما لهم ، وأميرا للمؤمنين ـ وكان السيد الجليل ساكنا بصنعاء ، فيبلغه النبأ العظيم ، ويحمله القادة الحجة فلا يجد بدا من النهوض بأعبائها ، ويتسلل من صنعاء خائفا يترقب وليس له من صاحب ، الا ابنه الشاب الذكي ، السيد يحيى بن محمد حميد الدين ٠

يخرج المهاجران سِراً خشية من الاتراك ، وعيونهم المترصدة المخيفة ، ويجتازان البراري ، والقفار ، ولا يدري الا الله ان خطواتهما تخط تاريخ جهاد طويل ، وتسجل استقلال امة وحرية شعب ، وان هذين المهاجرين الشريدين، سيحركان عجلة التاريخ اليمني ، نحو حياة جديدة ، ذات غاية سامية ٠

ويعلن « الامام المنصور بالله » دعوته فيجرف صيتها البقاع ، ويتحول ذلك الركود المخيم الى دوي هادر ، ويعلو

صوت الجهاد ، صاخبا ، فيتواثب « الزيود » ليوثا كواسر ، يطهرون بلادهم من اقدام الحاكم الدخيل ، وتدور رحى الحرب حامية ، ويقف بجانب الامام الجديد نخبة صالحة من العلماء والقادة ، والمجاهدين البواسل ، يمثلون بنقاء سرائرهم ، وخلوص نياتهم ، وزهدهم في الدنيا ، ورغبتهم في الاخرة ، وتفانيهم في سبيل الله ٠ وحبهم لوطنهم وامامهم ، ونصحهم لله ، وللامام ، وللمسلمين ، اصحاب محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ٠

وكانت معارك طاحنة ، ليس هذا البحث موضوع تفصيلها ، وتاريخ حوادثها ، ولكن لا بد ان نشير الى ان نجل الامام المنصور بالله ورفيقه في هجرته « سيف الاسلام يحيى » كان في تلك المعارك سند ابيه ، وعضده ، وساعده الاقوى ، ولذلك فما كاد « الامام المنصور » يلفظ انفاسه الاخيرة سنة ١٣٢٢ هـ ٠ (١٩٠٢) م٠ حتى اختار اولو الامر من علماء الامة ، وزعمائها ، سيف الاسلام « يحيى » اماما وبايعوه اميرا للمؤمنين، فنهض بأعباء الجهاد جادا نشيطا ، ودارت معارك هائلة حمل فيها الاتراك حملة سحق ومحق ، محاولين ابادة الحكومة الهاشمية ، ولكنهم قوبلوا من ارادة « الامام يحيى المتوكل على الله » وجنده واخلاص بطانته ، والفئة الصالحة من زعمائه ، ما سفه احلامهم ، وطاش بمحاولاتهم ، فاندحروا خاسرين ، وحالفت

جماعة الحق السعادة الالهية ، فتم استقلال اليمن ، ودانت « للدولة المتوكلية » كما هو معروف ومفصل في مكانه من كتب التاريخ •

هذه المقدمة الموجزة ، تشير اشارة لطيفة الى المحيط الذي نشأ فيه « جلالة الامام احمد » فقد ولد في سنة ١٣١٣ هـ • (١٨٩٣) م• في حجر خلافة جده « المنصور بالله » حجر الجهاد ، والكفاح ، والبيئة النبوية الصالحة ، فلم يفتح عيونه الا على صور النضال مكشرة حينا ، مبتسمة حينا آخر ، فلم ينوء بأعبائها الثقال قلبه الصغير ، ولم تذهب بوهج سعيرها روحه الناشئة ، بل نمت في قلبه مواهب البطولة، وضاعفت روحه، وصفت جوهره، وغذت اخلاقه، فعاش تسع سنوات في كنف جده العظيم «الامام المنصور» يغذيه باطيب الاخلاق ، ويكتسب من الاسفار والاتعاب ، الناتجة عن ظروف الحرب ، والكفاح ، قوة وبطولة ، وألمعية •

ولقد كان يلاحظ « الامام المنصور » في حركات ذلك الطفل ، المملوء بالحيوية والنشاط ، مخايل الفروسية، وشمائل البطولة ، فكان يتنبأ له بتفوق عظيم ، ونبوغ رائع ، ومستقبل مجيد ، وكانت كل تصرفاته تدل على عبقرية فائقة ، ستظهر في يوم ما قوة هائلة ، تخلق اجيالا ، وتصنع تاريخا •

في تلك البيئة الزاخرة بالعلم ، والفضل ، والتقوى ، والتقشف، والجهاد، نشأ وتربى «الامام احمد» • ولم يكد ابوه يتربع على عرش الخلافة سنة ١٣٢٢ هـ • حتى اشتعلت « الثورة الكبرى » في كل اصقاع اليمن ضد الحكومة التركية ، واستطاع « الامام يحيى » بعزيمته الفذة ، وبجهود بطانته المخلصين ان يثير جل طبقات الامة• وتوافدت جميع القبائل لمبايعته على الامامة والجهاد ، وقابل الاتراك تلك القوى الانسانية الثائرة المطالبة بحقوقها بقوة الحديد والنار : فهدمت المدن والقرى ، وازهقت الارواح ، وابادت العمران ، واشتدت المحنة ، وعظم البلاء على المجاهدين والاهالي ، « وبطلنا الصغير » في كف نوائب الدهر تتكون منه حياة جيل جديد •

يا لها من بيئة سماوية ليس فيها اثر لذلك الداء الفتاك بالاسر والجماعات والامم « الترف » •

الترف الذي اذا تسلط على اسرة افسدها واذا تحكم في أمة ابادها ، واذا صبّه الله على قوم اصبحوا في ديارهم جاثمين •

الترف الذي لم تهِن « الامة العربية » ولا فقدت مجدها ولا هانت على الله والناس الا حين تقلبوا في نعيمه، وانسوا بأخلاقه ، وحسبك بهذا بيانا لتعرف سمو تلك التربية وطهارة البيئة التي نشأ في احضانها بطلنا •

انها بيئة منزهة عن الترف ، بعيدة عن موبقاته تخلق من ناشئتها رجالا ابطالا يستحقون الحياة •

فيا ملوك العرب ، ويا زعماء الاسلام ، ويا ابناء وطني ابتعدوا بكل ماتستطيعون من قوة عن «الترف» واحذروا ان توبقوا اولادكم بسيئاته •• فانه النقمة الكبرى والطامة العامة • وما اهلك الله قوما الا والترف افتك ادوائهم وأبشع ذنوبهم ، وآيات الكتاب العزيز تغني عن كل بيان •

وتصوروا الحياة الاولى لبطلنا « الامام الناصر » وما كان لها من اثر فعال في تكوينه الخلقي والخلقي، ولو نشأ في ترف القصور ، وملذات النعيم كما ينشأ ابناء الملوك والامراء في الغالب لما تكونت تلك الشخصية القوية •

ان في ذلك لعبرة وذكرى وتبصرة لذوي الابناء • وان انس لا انسى اسمار ليال ــ قضيتها مستمعا لاحاديث طلية الموضوع ، رائعة المغزى ، كان يتفضل بها علينا صاحب الجلالة ، واصفا نواحي مهمة من حوادث حياته الاولى •• فلقد كانت تتبحر بنا الاحاديث احيانا فننتقل الى ماضي جلالته البعيد فيحكيه متواضعا ، ذاكرا كل ما كان يتلقاه من ازمان وشدائد واهوال ، ونوادر وغرائب ، في اسلوب لو وجد قصاصا ماهر الرتب منها اغرب القصص وابدع الروايات •

لقد كان في شبابه زلزلة لا تستقر ، وبركانا لا يهدأ، وعاصفة لا تغلب • ولقد حكى لنا مرة باسماً ساخراً مغامرته الكبرى حين شرد من مركز جلالة ابيه الى «عمران»، وكيف حاولت حكومة الاتراك ان تستغل فرصة وثبته فمنته بالوعود المعسولة ، ومنحته المال ليساعدها في تحقيق بعض امنياتها ، وكيف كان رده العملي ضربة ماحقة لآمالهم ، حدثنا بذلك معلقا بأن غرور الشباب قد يدفع الانسان الى ان يأتي اعمالا لا تلتئم مع ما يرضاه قلبه وضميره ، وانما يأتيها مكرها ، بدافع رغبته في الظهور ، أو بدافع العناد أو لمجرد خاطر تبرم بما حوله وتشوق الى حياة اخرى •

وحدثنا ايضا كيف نهد مغاضبا الى « شهارة » وما تجشم في طريقه اليها من اتعاب وأهوال ، وقد اجتازها راجلا يظهر ليلا، ويكمن نهارا، يدوس الاشواك والاحراش، ولا يبالي بوحوش الغابات ، ولا بمجاهل الطرقات ، ولا بما عسى ان يفاجأه من اخطار المترقبين والمتربصين • وتلقاه عامل شهارة (١) طائعا ، وأفرغ له دار الامارة ، ووافق جلالة الامام يحيى رحمه الله اخيرا على ان يسكن «شهارة» اميرا عليها ، وللدراسة واخذ العلم عن علمائها ، وفي مقدمتهم حينذاك القاضي العلامة عبد الوهاب الشماحي رحمه الله

ولو سمحت لليراع بسرد تفاصيل حوادث « الامام

(١) كان حينذاك والد المؤلف السيدمحمد الشامي رحمه الله •

الناصر » في فترة شبابه الاولى لخرج بي البيان عن موضوع الكتـاب الاصيل واستغرقت عـدة صفحـات في وصف مغامرات واخطـار لا تخطر على اخيلـة اعظم الروائيـين والقصاصين ٠



من العظماء من تخلقهم الظروف، وتبرزهم المصادفات، فلا يظهرون ــ حين يظهرون ــ الا صدى لصوت وعي قومي او اجابة لرغبة توثب شعبي ، او تلبية لارادة اجتماعية ، وهلم جرا .

وهؤلاء ــ دائما ــ يندفعون امام التيار الذي يجرفهم من الخلف الى حيث لا يدرون ولا يقدرون ، وحكمة الفذ منهم ، في هذا الموقف ، ان يحفظ توازنه الى ان يصل الى الغاية التي قدرتها ارادة ذلك التيار الرهيب .

وخذ مثلا اكثر زعماء الشعوب الحية التي تحاول ان تتخلص من غل كبلتها به سلطة عدوها اثر هزيمة حربية .. تجد ملايين من البشر يصرخون بصوت واحد ، ويندفعون بارادة واحدة ، وينهدون الى غاية واحدة ، .. ويوجد من بينهم شخص يتحمس لذلك الصوت ، ويتشبع بتلك الارادة ، ويتهالك في سبيل تلك الغاية ، فتتجسم فيه قضيتهم ، فيرفعونه على اعناقهم ، ويمضون به قدما نحو هدفهم .. ويكون زعيمهم وبطلهم وعبقريهم .. لا لأنه ابتدع فكرة سامية حدد سبلها وغاياتها .. ولكن لانه كان الصدى الاكبر لما يريدون ، وما يتطلبون .

ولست ممن يقلل من قيمة هذا النوع من الزعماء ولا ممن ينكرون فضلهم ، وحسب العظيم منهم ، انه

استطاع ان يكون اكبر صدى لصوت شعبه ، وأصدق تلبية لدعوة امته ، وفي ذلك ـ ولا شك ـ برهان على انه يملك من المواهب ما لا يملك الكثير من معاصريه والمحيطين به •

ولكني لا ارتفع بهذا النوع ـ في مقياس العظمة ـ الى صف اولئك الذين يبعثون في امة جاهلة ذليلة فيعلمونها ويعزونها، أو في شعب ضعيف جامد فيقوونه وينهضون به، أو في جيل شقي ضال فيسعدونه ويهدونه سواء السبيل ، ويستمدون من قلوبهم الكبيرة، وعقولهم المشرقة، ونفوسهم العظيمة ، وعزائمهم الشامخة قوى لا تهزم ، يودعونها مناهجهم وبرامجهم ، وأقوالهم ، واعمالهم •

ولقد كان الله سبحانه يبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام في الامم الجاهلة الضالة الشقية الذليلة مشرعين منقذين ، داعين الى السعادة ، والخير، والعدالة الاجتماعية، على حسب نمو الانسانية وتطورها الوجداني والعقلي ••• حتى اذا ارسل خاتم الانبياء محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بآخر كتاب لم يفرط فيه من شيء ، ووضع للانسانية قانونها الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •• اوصد باب النبوة ، ووعد بالهداية والنصر والتأييد من يجدد معالمها اذا اندثرت في عقول الناس ، ويتمسك بعروتها اذا نبذها الناس ، ويجاهد في سبيل اعزازها اذا اذلتها اهواء الناس واطماع الناس •

هؤلاء العظماء هم الذين ندعوهم في تاريخنا الاسلامي بالخلفاء الراشدين ، والائمة المجددين ، والعلماء العاملين • وهم ورثة الانبياء •• اي يتحتم عليهم أن ينهضوا بكل ما نهض به الانبياء عليهم الصلاة والسلام من ايمان بالله ، ودعوة الى الحق ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، واقرار للعدالة ، ومحاربة للظلم ، وارشاد الى الخير ، ومحاربة للشر ، وتنوير للعقول ، وتهذيب للنفوس ، وصبر على اللأوآء ، وثبات في البأساء ، وجهاد وانفاق في سبيل كل ذلك ، لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يبتغون الا وجهه الكريم •

نعم ••• انهم لا يشرعون دينا جديدا ولكن كفاحهم من اجل اقرار ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد يفتقر احيانا الى عزيمة نبي جاء لنشر دين جديد •

وهل استطاع الخليفة ابو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، ان يقر الزكاة في يوم حزيب ، الا بعزيمة تضارع عزائم الانبياء، وقد ثار الاعراب وتمردوا، واشفق المسلمون، وكاد الوهن يطغى على قلوبهم ، لولا ثبات ابي بكر ومن عصم الله ، وصرخته : بانه لن يترخص حتى في عقال بعير ؟

أفما كانت مواقف الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه في القاسطين والبغاة والمارقين كمواقف الانبياء ، حفظت لآيات الاسلام احكامها وموجباتها الى يوم القيامة،

في فترة اشتبهت فيها الطرقات ، واظلمت العقول والقلوب، وكان عليٌ وزمرته دعاة الحق الحاكمين بما انزل الله ، الحافظين لشريعة الله . ؟

ومن يقرأ تاريخ اليمن في الفترة التي ظهر فيها الامام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام لا بد ان يروعه الدرك الذي كانت قد هبطت اليه الامة في اخلاقها ودينها وكرامتها، فالحقوق مهدورة ، والشرائع مطموسة ، والضلالات متحكمة ، والبصائر عمياء ... ومثل الامام الهادي في صراعه مع تلك الظلمات صبر وكفاح وهداية الانبياء عليهم الصلاة والسلام .

ولو طفنا بالحديث في مختلف الاصقاع والازمان مفتشين عن سيرِ زعماء الاصلاح في أممهم ، منذ اقدم العصور ، الى يوم الناس هذا ... لوجدنا قصة واحدة تتكرر فصولها وادوارها مع كل زعيم من هؤلاء الزعماء ، كما تكررت من قبل مع كل نبي من اولئك الانبياء ... الا ان اولئك معصومون يوحى اليهم ، وهؤلاء يستوحون من وحي الله وقد يصيبون وقد يخطئون .

ولقد كانت دعوة الامام « المنصور بالله » محمد بن يحيى حميد الدين في فترة كادت ان تنمحي فيها شريعة الهدى ، فالطغيان العثماني يحجبها من جانب ، والطاغوت القبلي يسترها من جانب آخر ، وحطام الانسانية يتصرع

تحت ظلمات ذلك الطغيان . وكانت رسالة « المنصور » وصحبه تبديد الظلمات بأنوار الحق والهدى والايمان ... فارتفعت اصواتهم مدوية حتى افعمت صماخ الشعب اليمني ، بل لقد جاوزت آفاق اليمن الى الشعوب العربية الشقيقة التي كانت هي أيضا ترزح تحت اثقال الحكم التركي القاسي ، فرأت هذه الشعوب في دعوة « الامام لنصور » رمزا لخلاصها واستقلالها ، وبعثت اليه برسائل لتأييد والتهاني ، ومنها القصيدة الرائعة لشاعر العراق الكبير السيد جعفر الحلي النجفي التي يقول فيها :

مُرْ ، وَانْهَ ، واحكم فانت اليوم ممتثل
والامر امرك لا ما تحكم الدول
عنك الملوك انثنوا عجزا وما علموا
أأنت زدت علوا أم همو سفلوا ؟
خلاص ذي التاج ان يعطيك طاعته
لأمه ، ان عصاك ، الويلُ والهبل
يا سيداً لم يخف عزلا لمنصبه
والعزل منه بحذف اللام متصل
من كان في دينه لله منتصرا
فلا تقابله الانصار والخول
هذا سبيل رسول الله أنت به
أعطاكه اولياء الله والرسل

الدولـة اليـوم فـي أبنـاء فاطمـة
بشرى فقـد رجعـت ايامنـا الاول
« محمـد » اليوم قد احيا بني حسن
كأنهـم قط مـا مـاتوا وما قتلـوا
سيوفكـم لـم تـزل يـا آل فاطمة
منهـا نجيـع الطـلا المحمر ينهمـل
اللـه اعـلاكـم قـدرا وشرفـكم
وانكـم لهـداة النـاس لو عقلـوا
والكل منكم شريف القـدر ذو كرم
يزينـه خصلتان : العلـم والعمـل
فمـن رآك ، رأى الهـادي وعترتـه
وفيـك منه صفـات ليس تنفصـل

وكان جهاد الامام المتوكل على الله يحيى رحمه اللـه رائعا موفقا في سبيل تلك الرسالة ، فما ان تم جلاء القوات التركية مـن القطر اليمني سنة ١٣٣٧ هـ • حتى التفت الى تطهير البلاد مـن حكم الطاغـوت القبلي المتحكم بجهله وأضاليله على العقول والارواح، وانتدب لذلك نجله الاكبر الناصر للدين « احمـد » •

ذلك الكفاح العظيم الذي لم نقتضب الحديث عنـه اقتضابا بـل مهدنا له بما قرأت — هو الميدان الذي برزت فيـه شخصية « الامـام الناصر » ، وتجلت بـه مواهبه

الاصلاحية والعسكرية والسياسية ، فسيطرت على عقـول اليمنيين وقلوبهم وارواحهم ، وكونت منه بطلا عبقريا •

لم يكن امد هذا الكفاح المتشعب قصيرا ، بـل ظل عشرين عامـا — اي من سنة ١٣٣٧ الى سنة ١٣٥٧ هـ • — استمر اثناءها متنقلا في جميع نواحي اليمن ، لا يخرج من معركة الا الى معركة ، ولا ينفض يده من اصلاح الا ليمدها الى اصلاح جديد ، ولا ينتهي مـن القضاء على فساد الا ليتجه الى ابادة فساد من نوع آخر ، متبعا احكم الطرق ، وانجع الوسائل ، وانفع العلاجات ، ولا يحكم السيف الا حين لا تنفع الكتب ، ولا يجدى السلام ، متشبعا بالحكمة القديمة :

ووضع الندى في موضع السيف بالفتى
مضر ، كوضع السيف في موضع الندى

في حجة

في سنة ١٣٣٨ هـ ثار القائم بأعمال « حجة » ، ورتب حصونها . وكان « الامام الناصر » بشهارة يدير اعمالها ، ويأخذ العلم عن علمائها ، وما ان بلغه النبأ حتى نهد اليها بجمع غفير واحتلها بعد مناوشات ، واتخذها مركزا عسكريا يواصل منه جهاده ، وما كاد يستقر فيها ، حتى جهز البعوث الى « بني سعد » و « بني عواض » ، و « الادابعة » ، و « اسلم » و « نيسا » ، وغيرها ، وطهرها من الفساد والعيث ، وتم له فتح تلك الاصقاع الى « ميدى » و « حرض » وما صاقبها .

ومن مركز « حجة » استطاع بالحرب حينا ، وبالسياسة احيانا ان يفرض طاعة « الحكومة المتوكلية » على العشائر التهامية وما يجاورها ، « كالواعظات » ، و « عبس » ، و « بني نشر » ، و « حجور » ، و « بني قيس » ، و « الخميسين » ، و « بني مروان » ، و « المسارحة » وغيرها . مما كان تحت حكم « الادارسة » ، وظل معهم في أخذ ورد ، ولف ودوران حتى وفد بجمع وافر من رؤسائهم سنة ١٣٤٥ هـ . الى جلالة والده الامام يحيى رحمه الله بصنعاء . وقدم هذا الوفد فروض الطاعة

باسم البلاد التهامية « للحكومة المتوكلية » ، ومن اعضائه السيد هادي هيج ، والشيخ محمد طاهر رضوان ، والشيخ علي محمد الخميسي ، والسيد محمد حيدر ، وقد اكرموا ، واستقبلوا بالاجلال .

وقال القاضي العلامة عبد الكريم مطهر رحمه الله ، تنويها بهذا القدوم المبارك ، من قصيدة طويلة :

وما سيف الخلافة سيف عمرو
ولكن سيف ذى العرش المجيد
وما السيف الصقيل اشد منه
مضاء في التهائم والنجود
فكم فتحت به اقفال قطر
وماد بعزمه منصوب طود
وتفتخر المواكب اذ تراه
تميس عليه خافقة البنود

وفي منطقة « حجة » ـ مركز فتوحاته ـ طابت له السكنى ، فشيد القصور الفخمة ، والمساجد العامرة ، وانشأ المدارس ، وحفر الآبار ، وعبد الطرق للسيارات في جبالها الشاهقة ، التي لا يرقا الى ذراها الطير ، باذلا جهودا جبارة ، يقف لها الفكر مكبرا ، ولا تزال وستظل قوية لا تستسلم للدثور والبلى .

ومنذ حل « بحجة » وهـو يوليها عنايته الخـاصة ، ويتخذ منها مستقرا خاصا ، ولم يدر احد بسر هذه العناية الا بعد ثلاثين عاما ، حين وقف في معاقلها ، داعيا الى الجهاد اولئـك الذين احبوه منذ عرفوه فاتحـا لارضهم ، بـرا بضعيفهم ، هاديا لضالهم ، منتقما من ظلومهم . وكما ابتدأ كفاحه العملي من حجة سنة ١٣٣٨ فقد اتخذها مركزا لـه في أخطر مواقف حياته وكفاحه سنة ١٣٦٧ هـ . ، وانه لسر عظيم تـذهب العقـول في تحليله شتى مـذاهب الحيرة والشدوه، ولله الامر من قبل ومن بعد .

حَاشِدْ

كانت قبيلة « حاشد » في أوائل القرن «الرابع عشر» الهجري وأواخر القرن السابق له من اصعب القبائل اليمنية مراسا ، وأكثرها عصبية ، وأرهبها جانبا . وكان الحـكم التركي الذي لـم يلتئم بحال من الاحـوال مع النفسية اليمنية « وخصوصا قسم الجبال الشمالية » قد أثر آثـاره السيئة في طبيعة هذه النفسية ، فعجزه عن التغلب الساحق عليها ، ومطاردته الدائمة للحاكمين من « اهـل البيت » ، سبب عـدم استقرار حكومـة وطنية تعنى بتنظيم شؤون الناس ، وجمع كلمتهم ، وتعليم ابنائهم ، وتأليف شملهم ، وبث روح الالفة والاتحاد والنظام الدولي بـين افرادهم . فنتج عن ذلك انطواء كـل قبيلة على نفسها ، تكون مـن ابنائها عصبية قبلية تحمل ذاتها ، وتحافظ على كيانهـا ، من شرور « التركي » الذي يريد ان يحكمها ، وهي تأنـف حكمه ، ومن تعصبات « القبائل » الاخرى التي تجاورها ، ولكنها لا تنضم معهـا في سلك حكومة وطنية لهـا قوتها ونظامها ، وساد كل قبيلة نظام قبلي خاص بهـا تحت رآسة مشيخـة متغلبـة .

وضربت الفوضى بأطنابها على ربوع البلاد، وعشعش الجهل في سهولها وجبالها ، وظهرت العنصرية في اثـواب

غريبة عجيبة تشبه عنصرية الجاهلية الجهلاء ، فالفرد من قبيلة « ارحب » مثلا لا يعد نفسه مواطنا يمنيا تمتد حدود بلاده من شاطىء « عدن » جنوبا الى اطراف الحجاز شمالا وما يحاذيها شرقا وغربا ... ولكنه «ارحبي» أولا ، يكافح دون هذه « الارحبية » ويذود عن نظامها وعرفها ، ويضحي في سبيلها الصلات الوطنية ، والروابط الدينية ، ثم هو بعد ذلك يمني ومسلم ، ولا يهمه التعصب لليمنية ، والاسلام ، بمقدار ما يهمه التعصب لقبيلته التي ينتمي اليها .

وقل مثل هذا في جل القبائل اليمنية .

وكان حب « اهل البيت » يسري في اعصاب هذه القبائل ، ويتمكن من قلوب افرادهم ، تمكن عصبيتهم لعنصريتهم ، قد توارثوه اجمالا عن آبائهم وامهاتهم ، وتناقلوه جيلا بعد جيل عن الانصار والمهاجرين ، في اعماق التاريخ القديم .. وكان في وسعك ان تجد بينهم حينذاك من لا يهتم بالفروض الدينية ، ولا يفهم واجبات الاسلام ، ولكنك لن تجد احدا يتنكر لقبيلته ، او يترخص في حب علي ، وابناء علي عليه السلام .

هذا الحب العظيم « للاسرة العلوية » كان اقوى سبب في عدم خضوع اليمنيين للحكم التركي ، لانهم لا يريدون الا حكم « الامام » العلوي الفاطمي الذي يدينون

بحبه متقربين الى الله . وكان خليقا بالائمة في اواخر القرن الماضي ان يكونوا من هذه القبائل المتفانية في حبهم حكومات قوية تغمر الشعب بالسعادة والاطمئنان والخير العام ... ولكن انى لهم ان يحكموا او يستقروا والاتراك لهم بالمرصاد . وهم معهم في صراع دائم ، وكفاح مرير ، حتى تمكنت الفوضى، وتحكمت دواعي العصبية الجاهلية. وما ان جلا الاتراك حتى وجد « الحكم الامامي » نفسه امام مشاكل معقدة ، لولا حكمة « الامام يحيى » وجهاد نجله « الامام الناصر » لما تكونت هذه الحكومة المتوكلية بحال من الاحوال .

واذ كانت قبيلة « حاشد » اشد هذه القبائل ، وأدهاها ، فقد عمد بطلنا اليها اولا ...

اجل كانت « حاشد » كما وصفنا ، فخضد « الامام احمد » شوكتها ، وقلم أظفارها ، وكان طغيانها مستشريا لا يدين ابناؤها لشريعة ، ولا يخضعون لقانون — غير قانون عصبيتهم — اذا اظهروا الطاعة اسما فانهم في الواقع يحكمون انفسهم كما يشاء طاغوتهم ، ويقطعون السبل ويستهينون بالواجبات، فلا يؤدون فرائض الله، ولا يقيمون للمرأة وزنا .. بل هي عندهم متاع حقير لا يستحق ارثا ولا رحمة ولا تكريما ، فأدار عليهم من عزمه وبطشه رحى طحونا ، حتى اعطوا الطاعة وهم صاغرون ، ونبذوا احكام

الطاغوت والعرف الجائر ، واذعنوا لشريعة الله سبحانه وأدوا الواجبات ، وورثوا النساء ، واقروا بحقوقهن الدينية والانسانية ، ولم يدعهم لانفسهم وجهلهم يتخبطون في متاهات الضلالة ، بل بث فيهم من يعلم رجالهم ونساءهم فرائض الدين وواجباته وكان فضله عليهم عظيما .

هذه الحقائق يجهلها الان جل شبابنا ، فلا يقدرون مراحل الجهاد التي تطورت بـ « الامام الناصر » وحكومتنا .

الا فهذه هي الحقيقة ، لا زيف فيها ولا اختلاق .
وكتابنا هذا ليس تاريخا مفصلا لسيرة « الامام احمد » بل هو تحليل لشخصيته التي هي اللباب من سيرته ، فهو يكتفي بتسجيل اللمحة الخاطفة ، والاشارة الموجزة من تاريخه ، ولم نشر في هذا الفصل الا الى المواقف الحاسمة في كفاحه مع تعليل الاسباب والمسببات .

حَربُ الزرانيق

١٣٤٧ - ١٣٤٨

اما الغرة الشادخة في تاريخ كفاحه المضني ، والآية المعجزة في كتاب جهاده الخالد ، والبرهان القاطع على عبقريته العسكرية ، فتتجلى في اخماده لثورة «الزرانيق»، تلك القبيلة العاتية التي لم تعرف الخضوع التام منذ امد طويل لحكومة من الحكومات .

وكم حاول العثمانيون بعددهم وعتادهم ان يسحقوها ويمحقوها ، فذهبت جهودهم ادراج الرياح ، وباؤا بالفشل مرات ، وكانوا يضطرون ، ويضطر اهالي « تهامة » وتجارها الى دفع الاتاوات والاموال لهذه القبيلة ، والا فالطرق مقطوعة ، والحقوق منتهكة ، وكم اغاروا على مدن تهامة ومراكزها ، وكم عاثوا وافسدوا لا يخافون سلطانا ، ولا يرهبون تأديبا .

وكثر تعديهم على المراكز الامامية في سنة ١٣٤٧ ، واستشرت اطماعهم واشتطت مطالبهم ، وظنوا بل اعتقدوا ان اي قوة مهما كانت لن تقوى على البطش بهم ، لان لهم

من حصانة ارضهم بغاباتهـا المخيفة ، وكثبانها الرهيبـة ، ورمالها الجهنمية ، الى جانب ما يعتزون بـه من كفاءتهم الحربية ، وقواهم البدنية ، وبطولتهم المشهورة ، وما قـد سيطر على النفوس من معاني خوفهم حتى اصبح من المقرر ان كل محاولة في سبيل اخضاعهم لن تجدى ، وان الكيس والسياسة في مصابرتهم ، وأخـذهم بالتي هـي احسن ، ومداراتهم بالاموال والارشاد حتى يخف شرهم تدريجا .

ولكن عقلية «سيف الاسلام احمد» ، وهو العسكري الخبير والقائد المحنك ، لا تفهم هذا المنطق الموهون ، فهو على يقين من صدق كلمة الشاعر .

ووضع الندى في موضع السيف بالفتى
مضر ، كوضع السيف في موضع الندى

لذلك فقد كان من رأيه سرعـة الفتك بهذه القبيلـة والقضاء على شرهـا قضاء حاسما ، واصغى جلالة والـده « الامام يحيى » لهـذا الرأي ، ووكل اليه تدبير مـا يرمى اليـه . فجهز الجيوش ، وجمع الجمـوع ، وأمر العمال المحيطين ببلاد «الزرانيق» ان يطبقوا عليهم من كل النواحي، وجاء هو من الساحل فاستولى على ميناء « غليفقة » ، وعلى السفن الشراعية التي كانت تمـد « الزرانيق » بالامـوال والاسلحة الاجنبية، ثم انتقل الى واد «الجاح» في الجنوب

الغربي من مدينة « بيت الفقيه » « عاصمة الزرانيق » ويبعد عنها بنحو عشرين ميلا .

وهنا يـدور الصراع الهائل ، والملاحـم التي تشبه حكايات الخيال ، واستبسل « الزرانيق » في الدفـاع عن ارضهم ، وقاتلوا قتال الاسود الضواري ديس عرينهـا ، واستقتل الجيش الامامي مع قائده الشجاع المقدام ، الذي كان يرمى بنفسه امام جيشه ، لا يرهب حر الرمل ، ولا أزيز الرصاص ، والجثث تتساقط عن يمينه وشماله ، وهـو لا يبالي ، والرؤوس تتدحرج أمامه وهو لا يلوى ، واذا احتل شبرا واحدا فقد استحال رجوعه عنه ، ولو زالت الارض من تحت قدميه ، وكان مثالا رائعـا للجندي الشجـاع ، والقائد المقدام ، فبث روح البطولـة في جنده فاتبعـوه واقتدوا بـه ، واتخذوه مثلا .

وتصرمت الشهور تباعا ، والصراع الرهيب على قدم وساق ، وتقضى فصل الشتاء وجاء الصيف بقيظه وزوابعه، وحره وسعيره ، وظن « الزرانيق » ان الطبيعة قد امدتهـم بأكبر عون وأعظم مدد ، وتواثبوا مع زوابع الهجير عفاريت وشياطين، وكانت نيران بنادقهم تنصب على جبهات الجيوش الامـامية ، وسياط الشمس الحـارة تضرب ظهور هـذه الجيوش ، وتكوي رؤوسهم ، والزوابع والاعاصير تدور بهم هنا وهناك ، وهم وراء قائدهم وزعيمهم الذي يـرون

فيه روحا اقوى وأرهب وأفتك من رصاص البنادق، وهجير الشمس ، واوار العواصف ..

فاستمر الصراع رهيبا فظيعا مطبقا ، واستطاع «الامام الناصر» ان يتخذله «عيونا» في «بيت الفقيه» كانت تنقل اليه سرا اخبار « الزرانيق » وتقاريرهم وحالتهم المادية والمعنوية، وجاءته الامدادات تلو الامدادات من «الحديدة» و « تعز » ، وانتشرت اخبار شجاعته النادرة وبطولته الفذة بين «الزرانيق» انفسهم ، فسارت امثالا يتحدثون بها في نواديهم ، واساطير يناقلونها في اسمارهم ، والجندي البطل لا يعجب ، ويلذ اكثر ما يعجب ويلذ الا بأحاديث البطولة ونوادرها ، وحقائقها واساطيرها .

و « الزرانيق » قوم حرب وبطولة ، وقد رأوا في هذا القائد الذي يصارعهم ما لم يروه ولا رآه اباؤهم من قبل في احد ، فأجلوه وهابوه ، ولقبوه (بأحمد الجني) وقالوا عنه : (انه مصرف) ، وحاكوا حوله اساطير لا يفترعها الخيال ، وان اغرق اغراقا بعيدا .

وقد كان شديدا عليهم ان يروا اقوى رجل فيهم ، واعند بطل من ابطالهم ، وابرز مقدام من مساعيرهم مجدلا لا بالرصاص من فوهة بندقية مجهولة ، ولكن بالموت الزؤام من يد « احمد الجني » كما كانوا يقولون .

يا للهول ها هو ذلك الاسود الشجاع يتقاذف كالطاحونة الهوائية ، قد ملأ الافق مزمجرا هادرا . ويفاجىء رجال « المدفعية » من تحت حرش من الاحراش . فما ان بروه حتى تتخاذل اعصابهم ويولوا الادبار. ويثب «الاسود» مستوليا على المدفع او يكاد ، وتشاء حسن المصادفات ان يكون « احمد الجني » على مقربة منه فيهوله ما يرى . ويرتمي كالصاعقة على الخصم العنيد وفي سرعة خاطفة يقضي عليه فيخر صريعا .

ليست هذه القصة من تلفيق الخيال . ولا من وضع الدواة ، ولقد حدثني بها من شهدها بعيني رأسه . و «للامام الناصر» فيها شعر لو كان في متناول يدي الان لاثبته هنا.

وبعد معركة طحون ، استمرت اياما من شهر ربيع الاخر سنة ١٣٤٨ هـ . ، رجع كل من الفريقين الى معسكره، موهونا يستجم لمعركة اخرى في المستقبل ... في تلك الليلة وردت الى « الامام احمد » رسائل من « عيونه » « ببيت الفقيه » بأن خسائر « الزرانيق » في النفوس والعتاد فادحة ، وان قواهم المعنوية محطمة ، وأن . وأن ..

وهنا انتبهت في القائد الشجاع ، العبقرية العسكرية التي قل ان يتخلق بها قائد شجاع ، فجمع رؤساء جنده ، وقال : انه يرى ان يكون الهجوم على « بيت الفقيه »

فجر تلك الليلة ، فاندهش الجميع لهذا التصريح ، وحاول بعضهم أن يحول من تصميم جلالته لتعب الجنود وكثرة الجرحى وقلة العتاد . ولكنه صمم على خطته ، وقال : ارجو الله ان يكون هذا اليوم آخر يوم في هذه الحرب .

وخضع جنده لأُمره الصارم ، واختار الفرقة الصالحة ممن لا يزالون اشداء ، وولى عليهم قواده الممتازين ، ودبوا في فجر اليوم التالي دبيب الصلال . وما هي الا جولة او جولتان حتى احتلوا « بيت الفقيه » ، ودخلها القائد العظيم فاتحا منصورا ، وكانت خطة موفقة ، وكان تدبيرا حكيما ، وكان قضاء مبرما وانتصارا ساحقا على قبيلة لم تعرف الهزيمة منذ امد طويل .

والتفت بعد ذلك لفتة الاصلاح فطارد الاشرار واللصوص ، واشاد المدارس ، والمساجد والمعاقل ، وبث المعلمين ، وأمن السبل ، ثم قفل الى صنعاء ، ولا أزال اذكر يوم قدومه صنعاء من هذه الحرب الضروس ، وكيف خرجت الجموع المحتشدة لملاقاته ، وضربت المدافع تحية له ، واشعلت النيران ابتهاجا بمقدمه . ووقفت حينذاك وانا طفل لم يتجاوز السابعة من عمره أرنوا الى صورته وكأنني اشاهد معجزة مجسدة في هيكل محبوب .

في المشرق

لم تزل قبائل « دهم » وما صاقبها حتى سنة ١٣٥١هـ . متمردة لا تذعن للحكم المتوكلي ، ولا تخضع للسلطة الامامية ، واهلها يعيثون في الارض فسادا ، يقطعون السبل ، ويغزون المدن ، ويخيفون الرائح والغادي . فتجهز لقمع طغيانهم وكف شرورهم « الامام احمد » وعسكر في « حرف سفيان » سنة ١٣٥١، ووطأ العصاة وطأ شديدا حتى أتوه طائعين ، وما ان وصل الى « الجبل الاسود » الذي تمتد وراءه ارض قفر متصلة « بالجوف » هي الوكر الحصين لمردة السلب والنهب وقطاع الطرق ، حتى امر ببناء الثكنات الحصينة ، ورتب فيها جندا يحفظون الامن ويضمنون استقرار الحكم في تلك الربوع ، ويمنعون شياطين الفساد من ارتكاب الجرائم . وقد قال الاديب الشاعر السيد محمد بن عبد الرحمن شرف الدين رحمه الله في ذلك :

مراتب جند بناها الذي
معاليه تعلو على الفرقد
صَفِيّ الهدى ابن امام الورى
اجلّ بني المصطفى « احمد »

مراتب ما هي الا البروج
على قمة « الجبل الاسود »
وسكانها كالنجوم الرجوم
تنقضّ تحرق من يغتدي
اذا مَا رِدُ النهب وافى الى
رباها يريد فسادا رُدي

وفي « مدقة » نصب مخيمه المنصور ، وتوارد اليه اشراف « الجوف » ، ورؤساء « ذو حسين » وغيرهم • وصرح لهم ان الغاية التي جاء من اجلها انما هي اصلاح البلاد وتطهيرها من العيث والفساد ، وتأمين السبل ، واقامة شريعة الله • فأذعنوا ، ووضعوا يد الطاعة في يده • غير أن اهالي جبل « برط » من « ذو محمد » صعروا خدودهم للحق ، واغراهم شيطان العناد • فأظهروا الخلاف • فما كان منه بعد تحذيرهم وانذارهم الا ان زحف عليهم بجيشه وهزمهم هزيمة منكرة ، ودخل قرية « الخراب » التي تبعد عن « حرف سفيان » مسافة خمس ساعات شرقا ، وتقدم الجيش الى جبل « برط » وفتح مدينة « العنان » بعد معارك حامية الوطيس •

وهنا بلغه ان الابواب المزخرفة التي نهبها «البرطيون» من دار المهدي عبد الله ابن المتوكل في أواسط القرن الثالث عشر الهجري ، حين اغاروا على بئر العزب ونهبوها

نهبا ذريعا ، لا تزال قائمة في بيوت « آل مضمون » ، و « آل دمينة » ، وبيوت « البحور » آل « ذي زيد » وغيرهم • فأمر باقتلاعها ونقلها الى « صنعاء » • وكان جزاءا وفاقا لجناية قديمة • وتهاوت اركان « جبل برط » بين يديه ، واستسلم اهله مذعنين طائعين ، وشيد فيه مراكز حكومية وعسكرية ، وكان رائعا جدا ان يمثل امام هذا القائد العظيم أكابر « ذي نوف » وهم الذئاب الضارية ، والوحوش الفتاكة ، والمساعير الذين يفنون اعمارهم في الغزوات الى « الكرب والصيعر » وما وراءها ، ولا يحول بينهم وبين ما يبتغون حائل ••• ويدينون له بالولاء والطاعة ، ويرهنون ضمانا على ذلك ابناءهم ، ويذعنون لاحكام الشريعة فيؤدون الزكاة ، ويسود الامن حتى انه ليسافر الفرد من « الجوف » الى « مارب » ستة ايام متواليات آمنا على نفسه ، غير هياب ولا وجل ، وكان من الصعب على القوافل المسلحة ان تجتازها ، وقل ان تسلم من فتكات اللصوص ، وقطاع الطرق ، وشياطين الفساد •

وقد تعرضت في ملحمة « الامام الناصر » الشعرية لبعض هذه المواقف فقلت :

سل عنه اصقاع « سفيان » وسل « برطا »
ماذا رأت حين جاشتهم عساكره ؟

وكيف كانت توافيهم رسائله
بالنصح لو عقلوا نصحا يؤازره ؟
وكيف صب عليهم كل داهية
لما عصوه ولم تسمع أوامره
وساق نحو « عنان » من كتائبه
جيشا يموج كبحر طم زاخره
ظنوا بأنهم لا يغلبون وهم
وحوش دَوٍّ سوافيه مقابره
واذّكروا انهم بالامر قد وطئوا
« صنعاء » وما صنعوا باق مآثره !
فأعلنوا الحرب وانثالوا زبانية
يبادر الموت خوفا من تبادره
لكنّ « احمد » لا تؤتى جحافله
من ذا يصاوله والله ناصره
ساخت معاقلهم في الارض من فَرَقٍ
وأعتقت كل من فيها بواتره
فليذكروا أنهم بالأمس قد نهبوا
قصر الخليفة فانهارت مقاصره
وتلك ابوابه تحكي جنايتهم
والعيث قد مثلت فيها مظاهره
فليأخذوها بها غَرّاء شادخة
يا للجزاء ! اذا دارت دوائره

الجِهاد الأكبر

ثم ماذا ؟

أينتهي الكفاح عند هذا الحد وقد خضعت القبائل العاصية ، وأمنت السبل الخائفة ، واستقر الحكم ، وساد السلام ؟ لم يبق ما يدعو الى امتشاق الحسام وتجنيد الجيوش ، وتعبئة العتاد ، وقد آن للقائد المظفر ان يعود الى كنف جلالة والده راضيا مطمئنا محبوبا ، وآن له أن يتفرغ للمشاريع العمرانية والاصلاحية ، فيعممها في ربوع القطر ، وها نحن نراه بصنعاء يؤسس « المجلس العالي » ويشرف على اعمال الدولة ، ويدلي في كل ما تأتى وما تدع برأيه الثاقب ، ويحسم مشكلاتها ، ويرأم صدوعها ، وينتصر للضعيف والمظلوم ، والعاني والمحروم ، فتلتف حوله القلوب والامال وترى فيه الامة سندها وسنادها ، ويصبح كعبة القصاد ومأوى المنكوبين ، وملاذ الحائرين ، وملجأ المستغيثين ، ويكل اليه جلالة والده جل امور الدولة فيؤدي اعمالها بنشاط نادر دون كلال او فتور .

كان منطق العقل والصالح العام يقضي بأن ينتهي الكفاح هنا لو خضعت الاهواء لمنطق العقل ، وارادة

الصالح العام . ولكن رؤساء ممن كانوا قد بايعوا بطلنا بالخلافة بعد ابيه سنة ١٣٤٣ هـ. على يد السيد العلّامة الكبير رئيس محكمة الاستئناف زيد بن علي الديلي رحمه الله ، لما رأوا من كفاءته ، وعلمه وجهاده ، وتعلق الناس به .. أقول لكن قوما من اولئك لم يخضعوا ، او لم تخضع اهواؤهم لمنطق العقل والصالح العام . وبدأت المؤتمرات تعقد ، والاخذ والرد يدور ، كل ذلك يجري تحت الخفاء . ولكن عين « الامام احمد » لم تكن لتغفل عما يعملون ويدبرون ، فهو على يقين من عظمة نفسه ، وتفوق حقيقته ، وارادته الاولى، ومقصده الاسمى، اقامة الشريعة والمحافظة على البلاد ، واصلاح الامة ، وجلب الخير العام لها . وأما الملك والسلطان ، فان مرجع كل ذلك الى ارادة الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء .

كان « الامام احمد » متشبعا بهذه الروح — روح التوكل على الله — في جميع ادوار حياته ، مما ينبىء عن ايمان عميق بالقوة الالهية المسيطرة على كل شيء ، المتحكمة في كل شيء . فتركهم لأهوائهم ، واغراضهم ، وتدبيراتهم. ومضى في طريقه قدما نحو الغاية التي رسمها لنفسه من اول يوم : وهي السعي في سبيل اعلاء كلمة الله ، والعمل قدر طاقته في سبيل الخير والصالح العام ، والاجتهاد رأيه في اقرار ما يراه معروفا ، ومحاربة ما يراه منكرا ، حسب

الاصول الدينية الثابتة ، وحسب ما يقتضيه عقله ويؤديه اليه اجتهاده .

وهنا ينشب الكفاح الهائل، ولكنه كفاح غريب، كفاح من جهة واحدة — ان صح هذا التعبير — فقد اعمل المنافسون أفكارهم وعقولهم ، وبذلوا كل مجهود في سبيل تحطيم شخصية من ينافسونه ، وهو ماض في طريقه يبرز كل يوم حقيقة من حقائق المجد السامي ؛ ويظهر كل آن آية من آيات الفضل الباهر ، ويطوّق الاعناق بالاحسان . ويمتلك القلوب بالترغيب في موضعه، والترهيب في محله. غير مبدٍ اي حركة ضد من يسهرون الليالي غيظا منه وكيدا له ، ودون ان يظهر نحوهم اي نوع من أنواع الجفاء، ولسان حاله — وحقائقه السامية تزخر بأعماله — يقول مع المتنبي :

أنامُ ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جَرّاها ويختصموا

هل يعقل هذا ؟ صدقني ايها القارىء اني عشت مع « الامام احمد » ثماني سنوات ، لم أسمع منه في مجلس من مجالسه العامة والخاصة كلمة تند من فيه تنقيصا في جانب اولئك الذين لا يخلو مجلس من مجالسهم دون تلميح ولمز وهمز ضد الامام احمد .

ولو قد كانت الاحاديث تبقى مكتومة ، او لو كانت اعمال المنافسين محكمة لا تظهر لزال الاستغراب ، ولكن الحقائق كانت تدور على الالسنة والافواه ، وما اشرت اليه يعرفه اكثر اليمنيين ، وليس سرا مبهما لم تلكه الشفاه والاقلام شعرا ونثرا •

اما « الامام احمد » فقد كان الناس يقولون ويهذون بالحقائق والاباطيل، والصدق المقرر والكذب المبالغ فيه ، فيسمعه وكأنه لا يسمع شيئا ، ولا ادري هل لأنه كان يترفع بنفسه عن الصغائر والمهاترات ام لأنه كان يعرف طبائع الناس ، وان النفاق والغش والرياء يملأ اكثر خطبهم وأشعارهم ؟ ام لانه كان على ثقة من نفسه أولا ، ثم كان متوكلا على الله الى حد بعيد لا يتصوره الا الاقطاب ؟ وهذا هو ما أرجحه •

الذي اريد ان اقرره ــ انصافا للتاريخ ــ ان كفاح الامام الناصر ــ قبل ان يتربع العرش ــ لم ينته باخماد الفتن ، وتأمين السبل ، واستقرار الحكم المتوكلي ، ولكنه بدأ من جديد بصورة أدهى وأمر • وأنه كافح في هذا الميدان بالثبات والعمل ، والاستقامة ، والاتصال بشعبه ، والوثوق بربه ، ولم يحاول ابداء اي حركة يقضي بها على خصومه ، بوسيلة من وسائل الختل والغدر والكيد

السياسي ، والهمز واللمز ، بل كان شريفا حقا ، بطلا بكل ما في كلمة البطولة من معان •

نعم ان الامام يحيى لم يقف موقفا سلبيا بحتا حين بلغته تلك الاراجيف ، فقد أمر ولي عهده « الامام احمد » بالنزوح الى « تعز » للاشراف على اعمالها سنة ١٣٥٧ هـ • وعلى اثر ذلك غادرها اميرها السابق السيد علي بن عبدالله الوزير ، رحمه الله ، الى مكة للحج ، ومنه آب الى صنعاء • وارسل في سنة ١٣٥٩ سيف الاسلام عبد الله الى الحديدة نقلا لأميرها السابق السيد عبد الله بن احمد الوزير ، رحمه الله ، وطوى بهذه السياسة أبناء السوء التي كانت ترتفع اليه بين الفينة والفينة من هنا وهناك • واستمرت الاقدار تعمل اعمالها وتهيء اسباب ما سيكون •

وقضى « الامام احمد » أيام ولايته على لواء تعز في تنظيم الادارات ، واصلاح الطرقات ، وانشاء القلاع وعمارة المدارس ، وحصن قلاع « باب المندب » تحصينا عسكريا قويا بالمدافع البعيدة المدى ، والثكنات الشديدة القوى ، وبنى المستشفيات ، وجلب المدرسين ، وكان في الوقت نفسه مأوى لمن تضيق به الحياة ، وكعبة يقصدها الشعراء والادباء والعلماء والرؤساء والمشايخ والافراد ، واصبح مقاعد جامعة تضم ارباب الفكر والرأي واللسن في

الشعب اليمني ، وكان كما قال الشاعر الكبير القاضي محمد محمود الزبيري يخاطبه سنة ١٣٦١ :

اليكَ وإلاّ يا ترى أين نذهبُ
فلم يبقَ الا أنتَ في الارض كوكبُ

من قصيدة طويلة لا أذكر منها الآن الا هذا البيت •

وكل ذلك كفاح غير مباشر يركز في العقول والقلوب شخصيته ويبدد كل أمل لمنافسيه •

وكنت في هذه الفترة من زمرة الشعراء الذين يتنقلون في سرحات تلك الروضة الانف ، وكم ارسلت نغمات من وحي جمالها وجلالها • وقد جمعتها في ديوان شعري ، وأرى ان اسجل في هذه الصفحات قصيدة مما كنت القيه بين يديه ، وهي تعبر عما كان يختلج في الافكار حول الحياة الاجتماعية حينذاك ، وحول المستقبل ، وفيها حكم جازم بانه هو وحده الربان وقائد السفينة الى شاطىء النجاة •

انشدت هذه القصيدة بين يديه في مقام « عرض تعز » عند رجوعي من « صنعاء » في شهر العقدة سنة ١٣٦٤ هـ • وكان يرافقني في هذه الرحلة اخي الشاعر العبقري السيد عبد الوهاب بن محمد الشامي • ولقد حقق الواقع ما جاء فيها بعد ثلاث سنوات :

بعد الفراق

ودعت تلك الدموع حيرانا   يفيض قلبي اسى وأشجانا
وقفت في سُوحها أُخاطبها   بالدمع لا استطيع تبيانا
تحيّر اللفظ في فمي خجلا   يعثر بين الشفاه سكرانا
انظرها خاشعا وقد ملأت   قلبي هموم الفراق نيرانا
ياويح نفسي اكلما نعمت   بالوصل لاقت نوى وهجرانا؟
وودعت صفوها وراحتها   وصادقت جفوة وحرمانا
وصادمتها الخطوب قاسية   تسومها بالعذاب الوانا

***

كم أذرع الارض ذاهلا وَجِلاً   وكم أُجوب البلاد هيمانا ؟
ولم اجد موطنا اقيم به   منعما بالحياة جذلانا
كشارد يأسه يطارده   يريه أيّان سار احزانا
فليتني ما شهدت شارقة   وليتني ما عرفت انسانا
وصاحب من عشيرتي لبق   قلت له حين حان مسرانا
يا صاح! جد المسير، ان لنا   شانا واعظم بمثله شانا
قال: وما شأننا ؟ وكيف بنا   اذا رحلنا واين مأوانا ؟
وهل لنا في الوجود من وزر   وهل سنلقى هناك سلوانا ؟
قلت: تمهل،فقال: كيف؟وهل   يسلو ويرتاح مغرم بانا ؟
ومَنّ لنا والنوى تعذبنا   والشوق يذكي القلوب نيرانا؟
قلت : لقد روعتك اخيلة   تملأ وجه الوجود اشجانا
دعنا نسر يا أخي الى ملك   به ازدهى ديننا ودنيانا

هناك حيث النهى مكرمة   هناك حيث القلوب تهوانا
نحيا فلا فاسد ينال بنا   ما يبتغي اذ يقول بهتانا
فقال: والاهل ؟ قلتُ: حسبهم   رب يعم الانام احسانا
قال : ومَنْ ؟ قلتُ والمؤمَّل في   الضراء حامي البلاد ، مولانا
«أحمد» من في فؤاده قبس   يمحو به باطلا وخسرانا
قال : اذن فالزمان مبتسم   لنا وعين الاله ترعانا

***

مولاي لولا سناك يؤنسني   لعشت بين الانام غضبانا
مولاي لولا نداك يمطرني   قضيت دامي الجنان ظمآنا
مولاي لولا هداك يرشدني   قطعت شوط الحياة حيرانا
انت الذي في ظلال نغمته   تخذت لي مرتعا وبستانا
امرح لا أرهب الزمان ولا   اخاف ممن يخاف عدوانا
ان كاد لي كائد بمفسدة   آب ذليل الجناب خسرانا
ما دمت في حصنك الحصين فلن   اخشى من الحادثات طغيانا
وقد عرفت الانام قاطبة   وكان بعد الفراق ما كانا
لولا حنان منحتنيه لما   صادفت ممن وجدت تحنانا

***

وربما توهب الحياة لميؤس   لاحكام دهره دانا
ومن تكن عينه بصيرته   ويرى اطلاب البقاء خسرانا
والموت عند الحكيم معرفة   يطلبها كي ينام جذلانا
فلا تبل بالخطوب انعصفت   وكن غليظ الفؤاد احيانا

ولا تضق بالحياة ان عبست   فقد يجر السرور احزانا
وانظر تر الارض في مشاكلها   قد طفحت بالشرور افنانا
وانظر تر الناس في نقائصهم   غرقى ولا يطلبون غفرانا
والناس لا يستوون معرفة   كالناس لا يستوون الوانا
تباينوا منبعا وحاشية   وغاية ترتجى ، وادیانا

***

يا من سمت في الفخار دولته   وعز بين الانام سلطانا
ونال من ربه مؤمله   مكارما جمة ورضوانا
وبذ أقرانه هدى وندى   وهمة فذة وعرفانا
الشعب لا يرتجي سواك ولا   يرضى مليكا سواك انسانا

***

كم لي من آية شدوت بها   فماد قلب الزمان نشوانا
شعر تهز القلوب نغمته   كما تهز النسيم اغصانا
يروق من كان ناقدا لبقا   وشاعرا بارعا ، وفنانا
والشعر فن يزين صاحبه   كما تزين الفصوص تيجانا
بكيت في شعري الوجود ومن   فيه صغت الدموع الحانا
والشعر يبكي الحياة مذ وجدت   والشعر يبكي الوجود مذ كانا
بكى «امرؤ القيس» دمنة درست   كما بكى «البحتري» ايوانا
والشيخ «ذو المحبسين» مأسى   وعاش «كأبن الحسين» حيرانا
وهكذا كلما اتى رجل   بكى صروف الحياة الوانا

مشكلة ، لا تزال غامضة   كم اجهدت السنا وأذهانا
تؤب منها العقول خاسئة   اذ لم تجد حجة وبرهانا
وليس كالدين راحة فاذا   ما ضقت صادقت فيه سلوانا
تحيا به ناعما فان رحلت   روحك لاقت رضى ورضوانا

***

يا من اذا خاطبته السننا   تعثرت هيبة واذعانا
واذهلت لا تجيد قافية   واخجلت لا تطيق شكرانا
وكيف تقوى وانت معجزة   تجشمت للعيون انسانا
فتى تهاب القروم سطوته   وترتجي من نداه احسانا
فؤاده مزنة مطهرة   صيغت لعطف السماء عنوانا
تحزبت حوله القلوب فلا   ترى له في الانام اقرانا
تكاد من حبها تقدسه   مخلصة لا تضم شانا
وكم قلوب مريضة كتمت   بغضا وابدت رضى وتحنانا
لا زلت يا ناصر الشريعة   تهدينا بأنوارها وترعانا

ومن الاعمال المجيدة التي قام بها اثناء ذلك العهد هدمه للقبور التي يعتقد العوام ان موتاها يضرون وينفعون، فيلجأون اليها في حوائجهم، ويتوسلون بها في جميع مطالبهم، ويقدمون لها القرابين ، ويتخذ المشعوذون من ذلك وسيلة للسلب والنهب والتهديد ، والتضليل والدجل ، وتشويه معالم الدين الاسلامي ، بل ويحاربون الوحدانية الحقة ، التي هي لباب الدين، والاساس المتين لشريعة سيد المرسلين.

وكان اكبر هذه القبور شأنا ، واشدها خطرا ، مشهد « ابن علوان » الشهير «بيفرس» . فقد تحكم تقديسه في القلوب ، وتعمق الايمان به في الضمائر ، فالقصاد يحجون اليه كل وقت باختلاف طلباتهم ... للاستشفاع ، ولقضاء الديون ، وللمعالجة من الامراض ، ولطلب المال والبنين ، وللنصر على الاعداء ، ولدفع الجوائح ، وهناك في «المشهد» دجالون ومشعوذون ، قد اتخذوه وكنا لهم باسم تراب « احمد بن علوان » الثاوي في احشائه ، يسيطرون على ارواح الناس واموالهم ، ويبتدعون ابشع الضلالات : واشنع الاساطير ، وافظع الخرافات ، ويحتمون على تلك السوائم البشرية الايمان بها ، والتسليم لها تسليما مطلقا.

ومضوا على ذلك قرونا ، فارسل « الامام احمد » في سنة ١٣٦٢ هـ جماعة هدمته والناس نيام ، وكان غريبا ورهيبا ان يستيقظ الناس في اليوم التالي فلا يرون له اثرا . وكان لما عمله جلالته اعظم الاثر في قلوب الناس ، فقد ظلوا ينتظرون اياما لما عسى ان يحدث من معجزات وأهوال ، فتسقط السماء او تنبثق الارض ، ولما لم يحصل شيء تنفس الناس الصعداء ، وآمنوا أنهم كانوا في ضلال، وانبث المرشدون في النواحي والقرى يوجهون الناس الى الحقيقة الناصعة التي نزل بها القرآن الكريم ، ودعا اليها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ويفهمونهم

ما كانوا فيه من جهل ، وما اراده لهم منقذهم « الناصر » من سمو وهــدى .

وقد صور الشاعر الكبير محمد محمود الزبيري في قصيدة رائعــة هذه الحادثة وانشدها بين يدي « الامـام الناصر » :

كذلــك المجــد ، إمــا رافعــا علما
أو باعثــا امــا ، أو هادمــا صنمــا
يا من يجــدد من آثار والده المختار ،
مــا لــو رأى المختــار لابتسمــا
بنيــتَ مــا كــان يبنيـــه لامتــه
كما هــدمتَ لهــا بالسيف مــا هدما
قــد اقتلعتَ قبــاب الشرك متخــذا
مكانهــا البيض والهنديــة الخزمــا
حطّمــتَ قبــرا خطير الشأن جــانبه
لــولا عزيمتك الشمــاء مــا انحطما

جرح على كبد الاسلام متسع   وضعت فيه شعاع السيف فالتأما
عرش الخلافة يأبى ان يجاوره   قبر به لجأ الالحاد واعتصما
هذا تفيض على الدنيا اشعته   وذاك يدفن في ديجوره الامما

خــزى على مسرح التاريــخ تحسبه
الجُهّــالُ مجــدا بعــين اللــه محترما

يرنو اليه الملوك السابقون فما   كأنهم فضلاء أنشأوا الحرم
خديعة للجماهير التي زعمت   بان من دينها ان تعبد الوهما

تبــا لهــم كيف ذل الملــك في يدهم
وكيف صاروا لأوباش الورى خــدما
مــا ساءهم ان يظــل الملــك متكلا
على الضلال ويبقى الجهــل محتكما
مــا قيمة العرش ان كــانت دعــائمه
مكرا تدين بــه الاقطابُ والزعمــا
لم يجمع الله بــين السيف منصلتــا
والمــكر مستنكــرا الا لمــن لؤمــا
من كان يملك حــق السيف في يــده
فكيف لا يعلــن الحــق الذي علمــا
فذرهم (يا ولي العهد) في نفق التاريخ
واذهــب الــى آفاقـــه قُدُمــا
ودع ضميــرك يهفــو نحــو غايتــه
ان الضمائر تــدنى في غاية العظمــا

***

يــا « ناصر الدين » قد انقــذت امته
من معضل طالمــا قــد اعجز القدمــا
كم كابــدوا كل مكروه فما فطنــوا
ولا اشتكوا منــه لا هَمّاً ولا سَقَمــا

وليس جلادا ضد الاعداء ... ولو كان بعض ذلك اوكله لكان هينا سهلا عليه وهو البطل المجرب، ولكنه جهاد عنيف بينه وبين ارائه ورغباته وأفكاره ... استطاع ان يقف فيه ثابتا قويا صبورا وطالما انهزم فيه الابطال وتقلقلت به حيوات العظماء ، وتغيرت مصائر الافذاذ في التاريخ القديم والحديث .

كانت له آراء خاصة في السياسة الداخلية والخارجية وكانت تحارب من جهة المنافسين والمغرضين فلا يثور ولا يغضب ارضاء لجلالة والده الامام يحيى، وحرصا على طاعته له ، تلك الطاعة المثلى التي يعزلها النظير في تاريخ الاباء والابناء .

وانه لكفاح مجيد ، فاز به في الدنيا وما عند الله خير وابقى، وان كبت من جرائه افكاره وان تغيرت صحته، وان قاسى المتاعب والآلام وان سبب له المشاكل الكبار

وبعد فها قد اجملت في صفحات معدودات تاريخ كفاح طويل تشعب فنونا ، وتشكل ألوانا ، كفاح بالسيف ، وكفاح بالثبات وكفاح بالصمت ، كفاح هائل توج صاحبه بأكاليل النصر والفخار ، واقعده على عرش من القلوب والارواح .

طالما سمعت، وطالما سمع غيري سؤالا يتردد على السنة

وقدسوا جيفة في القبر منتنة
حتى اذا ما تلاشت قدسوا الرمما
والهوا منه ميتا كان قد انفته
الدود من طول ما عانت به التخما
فهان عندي عباد النجوم به
وكدت أعذر قوما الّهوا الصنما
ان لم يكن ذاك اشراكا بخالقهم
فأيّ شيء ترون الشرك ، يا عُلَما ؟

قالوا له كتب في القبر يكتبها ينهى ويأمر أنىٰ شاء محتكما
ياليت شعري اسحر ذاك يزعمه ام انه يخلق القرطاس والقلما ؟
ام انه اتخذ اللحد المقيم به عرشا يدير فيه اللوح والقلما؟
ام انها امة ضلت فضل بها ملوكها حين ما القوا لها السلما

حتى تمخضت الدنيا بواحدها
وانجبته زعيما يفضح الزعما

فجاء قلبا الى الاصلاح متجها لا يشتكي تعبا منه ولا سأما
يرى ويسمع مايجري فليس له عين تنام اذا ما طارق دهما

ما واجهته الليالي في حوادثها
الا رأت في حنايا صدره « هرما »
يستقبل الهول في نفس قد التحمت

اعصابها بجيوش الدهر فانهزما
ويستجنّ بقلب لو تصارعه
مناكب الارض ما استخذى ولا وجما
يلقى الخطوب ويصلى من حرارتها
ونحن في ظله نستبرد النعما

***

ان الزعامة روح الشعب تشعره
بدائه وتحس الضر والألما
والشعب من دون سلطان يؤيده
ميت يبعثر في اكفانه رمما
صاغ الاله لنا ملكا يلاحظنا
بناظر يسع الاقطار والامما
اما محيا كثغر العيد مبتسما
أو صارِ ماً كلسان النار مضطرما
سطا على ظلم الالحاد فانصدعت
واشرق الدين والتوحيد وابتسما

ولا يفوتني ـ انصافا للتاريخ ايضا ـ ان اعرض في هذه الصفحة مظهرا من مظاهر الجهاد الاكبر احتل به «الامام احمد» ذروة المثل العليا :

ليس صراعا في ميدان ، وليس كفاحا مع المنافسين ،

الناس : ما سر انتصار « الامام احمد » ؟ وما هي القوة التي تغلب بها على السيد عبد الله الوزير رحمه الله وحكومته رغم استيلائها على العدة والعتاد بصنعاء ومناصرة « تعز » و « اب » و « الحديدة » لها ... ؟ وأظن ان غيهب الحيرة سينكشف عن افكار الحائرين بعد أن يقرؤا هذا الفصل الموجز ، وسيفهمون ما هو سر ذلك الانتصار المفاجيء الرهيب .

وسيعرفون ان «النصر العظيم» كان ثمرة يانعة لكفاح « الامام احمد » في ماضيه العتيد ، الماضي الذي ملك به القلوب ، واستولى على النفوس ، ووطأ اعناق العصيان ، وقبض على الطغيان ، وذلل السوالف المشيحة ، وعفر المعاطس الوارمة ، فبرز بذلك كله شخصية هائلة تحتل المركز المكين في قرارة نفس كل يمني طوعا او كدها .

هذه هي الحقيقة ، وربما نقرأ في فصل آخر مايزيدها جلاء ووضوحا .

الإمام الزعيم

تظل فئات البشر من أي جنس نشرا لا يؤلفها هوى ولا تجمعها رابطة ، ولا توحدها غاية حتى تكوّن لها الاقدار زعيما تتمثل فيه رغباتها وآمالها واهدافها ، وهناك تصبح قوة هائلة وينطبق عليها اسم « الامة » ، فتمثل دورها في مسرح الحياة حسب استعدادها وظروفها ومبادئها .

وفي التاريخ الانساني صور شتى لهذه الحقيقة منذ كان الناس يؤلهون « الزعماء » ، ويحسبون للوراثة والعنصرية حسابا كبيرا، الى أن مجدوا فيهم الروح الوطنية والمبادىء الاجتماعية والاخلاق الانسانية ... منذ ان نهض نبي الله موسى عليه السلام ببني اسرائيل مكافحا طغيان الاستعباد الى أن خرج رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالامة العربية من الظلمات الى النور .

وقد قرأنا كيف تدفق « الاسكندر » بالجيوش الاغريقية محاولا اكتساح المعمورة ، وكيف تمزق جيشه فُلولا حين خطفته المنون ، وقرأنا كيف تفرقت قبائل الاسلام في الاندلس بعد الفتح العظيم ، وكادت تفنى لولا ان لَمّ شعثها « عبد الرحمن الغافقي » وكوّن منها قوة هائلة وَطّنت الاسلام في الاندلس قرونا ، وقرأنا كيف تمزقت جيوشه في موقعة « بلاط الشهداء » بعد ان سقط صريعا .

ولن أذهب بك بعيدا « فنابليون » رجل فرنسا ،

و « بسمرك » موحد المانيا ، و « مدحت » زعيم تركيا ثم « هتلر » النازية ، و « موسليني » الفاشية ، وتشرشل الانكليزي ، و « سعد زغلول » المصري وغيرهم من ابناء عصرنا الحديث ••• كل هؤلاء كانوا زعماء تكونت من حوادثهم تواريخ امم ، وسجلات اجيال على اختلاف في مبادئهم وأغراضهم ، خيرا وشرا وهدى وضلالا •

ولماذا اشرد في البحث عن حدود المحيط اليمني وأتوغل في مجاهل التاريخ البعيد ؟ لماذا لا استشهد « بالامام المنصور » بالله محمد ابن يحيى حميد الدين ، رحمه الله وقد اوجدت منه الاقدار في يوم ما زعيما روحيا عظيما كوّن نواة الدولة اليمنية وأسس اركان عرشها المكين • !

بل ولماذا لم اقف بالقاريء مباشرة على معالم زعامة « الامام احمد » مجتزيا بها عن سواها ؟

ولكن البيان نَهِم لا يكاد يقف عند غرضه الاسمى معرضا عن معاني الشواهد الاخرى •

منذ سنة ١٣٠٧ هـ• والاحداث ، والوقائع ، والاحوال تتمخض لتلد زعيما تتمثل فيه كل رغبات « الامة اليمنية » ، ولقد وجدت الامة في « الامام المنصور » اماما وقائدا ، ووجدت في خلفه « الامام يحي » زعيما ملكا • ولكن الشخصيات التي تكونت في ظروف تأسيس الدولتين

المنصورية والمتوكلية وبرزت في مسرح سيادتها ولدت فى النفوس شعورا قويا بأن أمرا خطرا لا بد ان يحدث حين تطوى آخر صفحة من حياة « الامام يحيى » وان الزعيم الشعبي المكين هو المجلى في الميدان •

كان يحسب الخاصة هذا الحساب ويخبطون فيه العشواء ، غير مقيمين لشعور الجمهور الاعظم وزنا •

ذلك الشعور الجارف الذي تمثلته المعية الشاعر الكبير محمد محمود الزبيري فقال مخاطبا « الامام الناصر » « ولي العهد حينذاك » ـ ١٣٦١ هـ•

العرش عرشك لا سواك ولن ترى
ندّاً الى آفاق عرشك يرمق
واذا انبرى قوم به قلنا لهم
هذى السما فثبوا اليها وارتقوا
ربّتك امتك التي ترجو بما
فعلته مجدا في يديك يحقق
فنشأت في اجفانها وقلوبها
تخشى عليك من النسيم وتشفق
تأوى بصدر حنانها لم تعتقده
في «عابدين» ولا احتواك «خورنق»
افهل تراها بعد هذا كله

ترضى سواك لعرشها يتسلق ؟
ام هل ترى أما وقد كبر ابنها
وغدا يصب لها النعيم ويغدق ؟
تأبى بنوته ، وتذهب تدعى
ولدا سواه تضيق منه وتركض ؟
هذا لعمركم المحال ، ولن ترى
شعبا على خيط المحال يعلق
قد يخفق الافراد في امنية
اما الشعوب فلن تراها تخفق

نعم لقد كان في مسرح السياسة اليمنية شخصيات كبيرة — وكان ولي العهد احمد — واحدا من هذه الشخصيات التي يحسب لها الخاصة حسابا كبيرا .. ولكن الذين كانوا يتصلون بشعور الجمهور الاعظم كانوا يقررون بأن تلك الشخصيات ستطيح في ضربة قاضية ان حاولت معارضة « ولي العهد احمد » « الامام الناصر الان » .

وكنت أنا ممن يقرر ذلك ويدعو اليه في الشعر والنثر والنوادي والمجالس ، وسجلته في رسالة كبيرة اسمها « اليمن الى سنة ١٣٦٧ هـ » كانت مهيأة للطبع ، ولكن الفتنة جرفتها بزوابعها وضاعت بين ما ضاع من اوراقي .

ولن ندع القاريء حائرا ، فلا نشرح له بعض الاسباب

التي كونت منها رأيي ، فلقد كنت من خاصة « ولي العهد احمد » ، ودرست اخلاقه ومواهبه دراسة فطنة وخبرة ، وكونت لي فيه رأيا قديما يعرفه من اتصل بي من سنة ١٣٦٤ هـ — ١٣٦٧ هـ ومن اطلع على رسالتي المذكورة آنفا، وكدت احصى خصائصه التي فقدها غيره من الشخصيات اليمنية ومنها .

(١) — كرمه : فلقد كان أكرمها يدا ، واسخاها نفسا وأوفرها اعطاء ... اعطاء ليس فيه ظلال من ، أوسمة تكلف ، أو شعور تفضل ، ومر وقت طويل وهو كعبة الامل ، وملاذ الراجي ، وكهف الملهوف .

(٢) ذكاؤه : وهو اذكى من عرفت من البشر — وبذكائه كان يقدر مواقف الناس، ويلمح مايجول بخواطرهم، ويعامل كل انسان بحسب ما عنده ، وما يفهمه ، وما يرجوه ، ويعرف أين يغضب ، وأين يتبسم ، وكيف يقف امام العامة ، وكيف يخاطب الخاصة . فاستولى على أهواء النفوس ، وامتلك حبها واجلالها .

(٣) دراسته العميقة للنفسية اليمنية : وقد هداه الى ذلك ذكاؤه الخارق ، وكثرة امتزاجه بالفلاحين والجنود ورؤساء العشائر في الاسفار والحروب والمغامرات . فلقد طاف في عموم اليمن ، وعرف عادات ولغات واحوال كل

قبيلة ، واذكر انه استصحبني يوما الى « ثكنات الجيش » بتعز لكشف سجلات « البرانيه » وهم الجند غير النظامي ــ واستعراض الافراد الحاضرين ، وكان عرفاء « البرانية » قد عرفوا ان « مولانا » اذا عرف ان بعض الجنود « البرانيين » غائبين يأخذون معاشات دون ان يقوموا بخدمة في المراكز المعينين فيها سيعاقبهم ، فعمدوا الى استعارة بعض الاشخاص بأجور اتفقوا معهم عليها ٠

وجاء دور الاستعراض ، فكان يأتي دور الفرد « الحاشدي » فيمثل امام « ولي العهد » فيسأله عن اسمه واسم ابيه فيذكره كاملا ، ثم يختبره فيسأله عن مشايخ بلاده وعن معالم جبالها ووديانها وقراها ومشاهير رجالها ، فاذا كان من « حاشد » حقا فاز والا سقط في بحر من الاسئلة المحرجة ، فيضطر الى الاعتراف بانه ليس من « حاشد » وانما استأجروه لستر الجريمة ٠

وهكذا يقف مع « الارحبي » و « البرطي » و « الحمداني » و « الصعدي » و « الخولاني » و « الاهنومي » و « الحجوري » وجميع افراد القبائل المختلفة المتباينة في خصائصها ٠

اكبرت ذلك اليوم اطلاعه الواسع على جغرافية البلاد ، وعلى اسماء رجالها ومشايخها وأماكنها ، وعلى

اكتناهه لجميع عاداتها ، بل والله لقد كان يحفظ حتى اسماء بعض شيوخها وعجائزها ، فيقول مثلا للذي يدعى انه من « القرية الفلانية » من « القبيلة الفلانية » ــ أي قرية واي قبيلة ــ هل تعرف « عمي فلان » و « عمتي فلانة » من المعروفين في تلك الناحية ٠ يسأل هذه الاسئلة ببساطة ولطف ، والابتسامة لا تفارق شفتيه ٠ فيبهت المسؤول ويبهت « العريف » فيضطرون الى الاعتراف وطلب العفو فيجدون عنده كل اغضاء وكل جميل ٠

عدنا ذلك اليوم وكنا قد تأخرنا الى قرب العصر واستصحبني الى داره الخاصة لتناول « الغداء » ٠ ولقد ظللت وانا معه على الطعام اتأمل معالم الذكاء الخارق في جبهته البارزة ، وعيونه النفاذة ، ونظراته الحادة ، وحاولت ان استشف ما وراء ذلك الجبين العريض فلم اجد بدا من الاطراق بروحي اكبارا للنبوغ النادر والالمعية الفذة ٠

واستعظمت حين خلوت الى نفسي هول « المعركة » التي يتوقع ان تدور بينه وبين خصومه، وحاولت ان اتصور موقفه من هذا الجمهور الذي بلغ في حبه لقائده حد التقديس والذي تمكن هذا القائد من امتلاك أزمة هواه ٠

حاولت ان اتصور ذلك فلم يطاوعني الخيال الا بصور غامضة أوضحها القدر في يوم رهيب ــ لم يسمح لي سوء

حظي بمشاهدته ، ولكن الذين شاهدوه رووه لي كما عاينوه • ، وهو اعظم برهان على تمكن بطلنا من اكتناه اسرار « النفس اليمنية » وقدرته على تصريفها •

كلنا يعرف ان « الامام احمد » غادر تعز في ٧ ربيع الثاني سنة ١٣٦٧ هـ• وجل ظنون القوم لا تشك في انه قد انتهى •• ! حتى لقد سأل رجل بعض ادباء اليمن في « عدن » واين ذهب السيف احمد ؟؟ فقال الاديب اليمني : ها ••• لقد ابتلعته الرمال •

وما ان انبعث هذا البطل من بين الرمال واستقر « بحجة » حتى نسلت اليه القبائل من كل فج تملأ الآفاق هتافا ووعيدا •

وفي يوم من ايامه الاولى جهز رجال « جبل عبال يزيد » بالسلاح والزاد ، وطلب منهم التقدم نحو « صنعاء » ويقول الرواة : ان مشايخ « الجبل » تلكؤا وتعنتوا ، واشتطوا في مطالبهم ، وأرادوا ان يتخذوها فرصة ، وفهم ذلك ــ بطلنا ــ فماذا صنع ؟

ان الظروف حرجة وهو في اشد الحاجة للجندي الواحد فكيف يقف مع رجال « الجبل » وهم هم ثباتا واقداما ؟

أيوافقهم على شروطهم فيكيل لهم المال والعتاد كما يريدون فيكون محكوما مسيرا وقد لا تقف مطامعهم عند حد ؟

وفعلا اشتطوا في مطالبهم ولوحوا له بأنهم ان لم يجدوا عنده ما يسد رغبتهم فسيلتحقون بالوزير ، يا له من موقف حرج ويا لها من ظروف عصيبة •

وفي اليوم التالي تجمهر رجال « الجبل » ومشوا « بزواملهم » نحو ساحة « سعدان » وأطل عليهم « الامام الناصر » من النافذة وناداهم : اما عزم رجال الجبل حتى الان ؟ فأجابوا نريد مطالبنا • وفي حركة سريعة تمنطق وأمسك بسيفه ، وخرج عليهم واتجه نحو الباب ، وأمر باغلاقه ، ونادى بأسماء مشايخ الجبل فردا فردا ، وسألهم عن اسباب تأخرهم ؟ فأجابوا بأن لهم مطالب يريدون تنفيذها • ويريدون المال الكافي ، والسلاح النظيف ، ودار حوار لم يتمكن راوي الحديث من ضبطه ، ولكنه سمع « الامام » يصيح فيهم بما معناه : لقد توهمتموني ضعيفا، وظننتم اني لن انتصر الابكم خابت ظنونكم ، وخسئت أوهامكم ، انني لست بحاجة الى انسان ، وما انا الا بالله ، هو معتمدي وعليه اتكل، ولسوف اصل الى كل ما أريد واملأ وجه الارض دماءا ورؤوسا ، سأقاتل حتى انتصر أو أموت شهيدا •

وانتم فاذهبوا ان شئتم باطماعكم الكاذبة الى « صنعاء » وستجدون الاموال يقسمونها بلا حساب ، والاسلحة يفرقونها بلا تقدير ، « وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » .

ثم قال : لن اترككم تذهبون بأسلحتي فمن اراد ان يخرج من هذه الساحة سليما فليتسلم السلاح والا فستدوس جثته الاقدام ـ قال ذلك وهو الوحيد بين جمهور عظيم ـ واتجه نحو الدار . فتراجع القوم وراءهم مأخوذين ، وفسحوا له الطريق مبهوتين ، ثم افاقوا وصرخوا : سنموت بين يديك يا مولانا كما تريد . فالتفت اليهم التفاتة القائد المحنك وقال : بارك الله فيكم ، انتم جنودي المخلصون ، ولا يمكن ان اترككم من ما تحتاجون اليه بالاجر والثناء والجميل .

وبعد ظهر اليوم نفسه قدم رجال « الجبل » العقائر يطلبون العفو عما صدر منهم ، ويستمنحون امامهم الرضا ولا يريدون غيره شيئا ، وفي سبيل نصرته اقدموا مستميتين .

(٤) ـ شجاعته الادبية : وهذه الميزة برزت به في مجالس العلم بحاثة ، وفي المجامع خطيبا ، وفي النوادي محاضرا ، وفي المآزق ثائرا ، وكونت منه قوة لعائلة يحسب لها كل فريق حسابا .

(٥) ـ ذلك التكوين الجثماني الجذاب : بقامته المتناسبة ، برأسه الكبير ، بعينيه الواسعتين النافثتين بأشعة رهيبة ، ببشرته الصافية ، بجلالته الطاهرة ، ببسمته الساحرة ، بقوته الحديدية ، بأعصابه الفولاذية ، بصوته الجهوري الخلاب ، بذلك الجو من الحيوية يحدق به اين ذهب وقد تفنن في وصف هذه الميزة البارزة كثير من شعرائه ، وخصوصا الاستاذ « الزبيري » في قوله :

اشرقت يوم العيد اروع طلعة
منه واكبر في النفوس واعبق
وكأنما الفردوس صاغت نورها
ملكا ندين بملكه ونصدق
تبدو لنا فتهيم فيك عيوننا
وذكاء في آفاقها لا ترمق
والشمس تخلق ضوء عيد واحد
وعلى جبينك الف عيد يخلق
وكأنما صورت من ابصارنا
فتكاد تخطف بالعيون وتسرق
وترى العيون تسيغ نورك لهفة
وتضم محجرها عليك وتطبق
وتكاد تبلعك النواظر خلسة
وتشد اهدابا عليك وتغلق

عجلت بها نظراتها فتفتحت
حيرى ونورك زاخر يتدفق
فكأنها صاد يقبل كوثرا
فتهيج لوعته عليه ويشرق

غبّت وما رويت وأنّى يرتوى
من طلعة الفردوس طرف شيق

ولهذه الميزة قيمتها ، وخصوصا في أعين الجماهير ، ولم تزل سنة التهافت على رؤية العظماء والافتتان بصورهم طبيعة فطرية في البشر منذ اقدم العصور الى يوم الناس هذا .

(٦) ـ جرأته على تنفيذ ما يراه حقا : وما يعتقده خيرا وعدم تردده امام المشاريع العظيمة المتعلقة بمصالح الامة . ولقد كنت في حديث خاص مع شخصية عربية عن بعض شخصياتنا البارزة سنة ١٣٦٦ هـ فكان مما قاله لي: « هل هؤلاء ينقصهم اقدام ذلك المقدام » يريد « الامام احمد » .

واتفقت بعد حادث ٧ ربيع الثاني سنة ١٣٦٧ هـ « بالرئيس جمال جميل العراقي » . في موقف خاص ، وقد بويع عبد الله بن احمد الوزير اماما وجهل مصير «ولي العهد » . فقال لي الرئيس « انني أريد ان اسألك سؤالا

ارجو ان تكون في جوابك عليه صريحا .

قلت : تفضل .

قال : وتقسم لي بشرفك ان تكون صادقا .

قلت : اقسم بالله على ذلك .

قال باسما : انتم معشر اليمنيين قد ألفتم الاقسام بالله ، حتى لم يبق عندكم تحرج منه ، واصبحت اسمع اكثركم يلهج بذكره عند توافه الامور .

قلت محتجا : استغفر الله ، ان هذا اتهام خطير لا أرضى ان يلصق بي أو بقومي .

قال : العفو ، فاني لا اقصد سوءا ، وانما اريد ان تقسم لي بشرفك انك ستقول الحقيقة .

قال : اي شخص اصلح للامة في نظرك « ولي العهد احمد » ام غيره ؟

فتلكأت في الجواب اولا خشية ان يكون الرئيس مكلفا بفهم معتقدي لصلتي « بولي العهد » ، والظروف حرجة حينذاك ، و « الرئيس جمال » هو كل شيء في حكومة الوزير ـ ولكنه فاجأني مقسما بشرفه العسكري انه لا يقصد شرا ، وان الحديث لا يتجاوز تبادل الآراء

الشخصية الخاصة ، وانه على يقين من اخلاصي وتأييدي للامام عبد الله الوزير .

قلت : وتعدني ان يظل الحديث مكتوما .

قال : نعم .

قلت : أما انا فأرى ان « ولي العهد احمد » هو الزعيم الشعبي الوحيد ، وانه اصلح للشعب اليمني من غيره، ودللت على ذلك ببعض حوادث ثم حاولت أن أحفظ خط الرجعة الموهوم . فقلت : وقد يكون مرجع هذه العقيدة الى عاطفتي الشخصية نحو من تتحدث عنه لانك تعلم مكانتي لديه .

قال مبتسما : ليس كلامك صادرا عن عاطفة شخصية، ولكنه كلام العارف المفكر ، واقسم لك اني اعتقد ما تعتقد ، ولكن كيف السبيل ؟ ولو اطلعت على مذكراتي لقرأت رأيك بالذات .

أي والله !

لقد دار هذا الحوار بيني وبين « الرئيس جمال » في وقت كانت كل الظنون ، بل وكل الحقائق تدل على ان « ولي العهد » (الامام الناصر) قد اجترفه تيار الهول ، وتلاشى امره ، ولم يبق له يوم مشهود ، ولا مستقبل موعود .

وها قد ذهب كل شيء ادراج الرياح ولم يبق الا ما لاحظناه في ذلك اليوم يائسين من وقوعه ، غافلين عن الحقيقة الكبرى . الحقيقة الكونية الخالدة الناطقة ، بان البقاء للاصلح ، وبان الارض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين .

لا ابغي من بحثي هذا الا تقرير ما اعتقد ، ووصف الواقع ، ولا ابالي ان اسجل فيه معرفتي بفلان وعلان : وكأني بمن لا عقول لهم ولا ضمائر يصفقون بيد على اخرى قائلين بنغمة الظفر : ها هو يعترف . الا سامحكم الله يا قوم ! لو كنتم تعقلون . ان الحقيقة اسمى مما تتصورون ، وقد وضح الصبح لذي عينين ، ولست بالجبان الذي ينكر مع الباطل الحق . والمكابرة فيما لا يخفى شرعة الجاهلين ، وقد اطلع الامام احمد على اعمال الجميع ، وانطوى الماضي ، بما يحمل من خير وشر وداسه تحت قدمه غافرا كل زلة متجاوزا عن كل هفوة . مترفعا بمواهبه السامية عن الحقد والبغضاء ، شاملا بعفوه الناس اجمعين .

وشتان بين تفكير الزعماء وتفكير الاقزام ، اولئك ينظرون الى الحياة نظرة شاملة لا تقف عند هوى صغير ، ولا تنحبس برغبة ناقصة ، يقدمون الصالح العام على صالحهم الشخصي ، ولا يبالون ان ضمنوا السعادة والخير لأممهم ان لا يربحوا نقيرا ولا قطميرا من حطام الدنيا .

قد علمنا ان ليس الا بكد النفس
صار العظيم يُدعىٰ عظيما .



يقول الاستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه اللـه :

« السلطان في الاسلام هـو الشرع مرئيا يتابعه النـاس ، متكلما يفهمه الناس ، آمرا ناهيا يطيعه النـاس ، وأمـارة المؤمنين ، هي ارتفاع نفيس من النفوس العظيمة الى اثـر النبوة ، كأن القرآن عرض المؤمنين جميعا ثم رضي منهـم رجلا للزمن الذي هو فيه ، ومتى أصيب هذا الرجل القرآني فذاك وارث النبي في امته ، وخليفته عليها ، وهو يومئـذ امير المؤمنين ، لا مـن امارة الملك والترف ، بل من امارة الشرع والتدبير ، والعمل والسياسة » .

« وامارة المؤمنين هي بقاء مادة النور في المصبـاح ، الذي يضيء للاسلام بامداده بالقدر بعد القدر ، من هـذه النفوس المضيئـة » .

وتلك هي الصورة الصحيحة للامام الحق في الديـن الاسلامي ، ولو رجعت الى اصول « المذهب الزيـدي » وشروط الامامة عندهم ، لمـا رأيتها مباينة لمـا يومىء اليه بيـان « الرافعي » .

انها بضعة عشر شرطا ، لا تجتمع الا في انسان كامل، هو أمل الانسانية في كل امة ، وفي كل عصر ... تخيلـه « افلاطون » في « جمهوريته » ، وتوهمه « بيكون » فـي « مدينته الفاضلة » وأفنى « نيتشه » زهرة عمره يبحـث

عنه بخياله في جبال « الالب » ويتمثله في « الانسان الاعلى » ، ووجدته « الامة اليمنية » في دعاتها الامجاد من اهل بيت نبيها الكريم ، جيلا بعد جيل •

العدالة ، والاجتهاد المطلق ، والكرم ، والشجاعة ، والحنكة السياسية ، وحسن الخلق ، والصبر على الشدائد، والعفة ، والتقوى ، والقدرة على تصريف الامور ، والدعوة الى الحق ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واستشارة اولى الخبرة ، وان يكون علويا فاطميا ، جماع تلك الشروط الحكيمة في « الامام » ، وان توفر بعضها في انسان يضمن ثقة البشرية به ، فتضع ازمة حكمها بيده ، وتفرض امورها اليه ، راضية ، مطمئنة •

واول أئمة اليمن الامام الاعظم الهادي الى الحق « يحي بن الحسن بن القاسم الدسي » عليه السلام ، واليه ينتهي نسب « الامام احمد » ايده الله ، بل ونسب اغلبية الاسرة العلوية في اليمن •

وكان ظهور « الامام الهادي » في اليمن سنة ٢٨٤ هـ بدعوة من زعمائها ورؤسائها ، لانقاذها من مخالب الفوضى والضلال ، والموبقات ، ومناقبه ـ عليه السلام ـ وجهاده

وآثاره تدعو الى كتاب مستقل سنعنى باخراجه قريبا ان شاء الله (١) •

وقد تعاقب الائمة من ذريته ، وظلوا في جزر ومد ، واخذ ورد ، ونضال وكفاح مع الاسر والطوائف ، والدول المتغلبة في اليمن طيلة ثمانية قرون ، حتى صفا الجو لال «القاسم بن محمد المنصور» ، ثم جاء العثمانيون لاخر مرة، وكان الصراع بينهم وبين الائمة داميا ، الى ان نهض «الامام المنصور» فوطد اركان الامامة من جديد ، وخفقت رايتها مستقلة على ربوع اليمن ، وتقدم اخيرا « الامام احمد » ايده الله فنصبها في اعلى مكان ، وسمى بها الى ارفع آفاق المجد •

وصفات الصالحين من « أئمة الزيدية » على العموم ، لا تباين صفات « الخلفاء الراشدين » واحسن ما قرأته في ذلك كلمة للعلامة المؤرخ الكبير محمد كرد علي ، ولكن مصدرها ليس في متناول يدي اثناء تحرير هذه السطور وهي تمثل تواضعهم واهتمامهم بامور الرعية ، وتمسكهم بالشورى ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وترفعهم

١ ننوى ان نخرج عدة كتب عن عباقرة الائمة ، كالامام الهادي والامام عبد الله بن حمزة ، والامامشرف الدين ، والامام القاسم بن محمد •

عن سيئات الترف ، وموبقات الفساد ، واسلوب سياستهم ، وادارتهم ، واتصالهم بأبناء شعبهم .

ليسوا بالملوك المتغلبين ، ولا بالسلاطين الجائرين ولا بالامراء الاقطاعيين ، دستورهم القرآن ، وقانونهم العدل ، وشرعتهم الانصاف ، القوي عندهم ضعيف ، حتى يأخذوا الحق منه ، والضعيف قوي حتى ينتصفوا له ، لا ترف ولا اسراف ، ولا جور ولكنه الاتزان ، والقسط والمساواة .

انا لا القي القول جزافا ، ولكني اعرف ما أقول ، وسأبادر فأقمع خواطر السوء في بعض الافكار ، جازما بان هذه الصفات ، تنطبق على مجموعهم لا جميعهم ، وعلى جلهم لا كلهم . ولم يزل الضعف طبيعة البشر ، ولا عصمة لغير الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلا غرابة اذا وجد في أفرادهم القلائل من يتنكب عن صراط الائمة المستقيم (١) .

و « الامام احمد » من اولئك الذين تتجسم فيهم جل شروط الامامة بوضوح ، وكمال .

اما كيف ارتقي العرش ، وتسنم ذروته ، فان « الامة اليمنية » هي التي حكمت بذلك يوم زحفت فيه الاهوال

(١) اننا لنأسف أشد الاسف وأحرمان يشوى الضلوع حين نرى شبابنا منصرفين عن مطالعة التاريخ اليمني وسيرة الائمة .

جامحة ، واحدقت الاخطار ثائرة ، فحققت الارادة الالهية ارادة الامة ، وكان انتخاب « الامام احمد » بمظاهرة شعبية لم يعرف لها التاريخ مثيلا (١) .

ان الشعور الذي غمر قلوب اليمنيين في تلك الظروف العصيبة ، يخرس الالسنة ، ويجفف الاقلام ، ويعصف بكل بيان ، واذا استطعت ان تتصور شعبا كاملا يصرخ رجاله ، ونساؤه ، واطفاله ، وشيوخه ، بتأييد رجل واحد هو « الامام احمد » امكن ان تتصور ذلك الشعور .

اجل لقد كان « ولي العهد » مرشحا للخلافة ، وكان قد بايعه الزعماء ، والرؤساء ، والعلماء ، ولكن احدا من المفكرين لم يكن متأكدا ان الامر سيتم بسلام ، دون ان تثور فتن وتراق دماء ، وتقصف رقاب .

كان العقلاء يتوقعون هذا ، ويخشون ان يحدث من جرائه ما يطيح باستقلال البلاد ، وكانت التوجسات تدور

(١) البعض يظنون ما نقوله خيالا لبعدهم عن حقائق التاريخ ، تاريخ بلادهم ، ولقد كنت مرة اتحدث مع الاستاذ احمد المعلمي عن « الامام الهادي عليه السلام » وأصف ما أعلمه عنه ، فقال لي فجأة :
هذا خيال يا صديقي .
فقلت له :
هل طالعت سيرته وتاريخه ؟ قال : لا .
قلت : اذن فانت معذور .
وبعد حين اطلع على سيرته فجاء الي والحق قد اخذه من جميع اقطاره .
يقول :
انها سيرة نبي يا صديقي لا سيرة انسان عادي ، اشهد انه من افذاذ البشرية وعظماء الانسانية ، ه .

حول ست شخصيات تروح وتغـدو في مسرح السياسـة اليمنية ، وهـي :

سيف الاسلام ولي العهد احمد ، السيد عبد الله ابن احمد الوزير ، الامير علي بـن عبد اللـه الوزير ، السيد محمد ابـن حسن الرادعي ، السيد علي بـن حمود شرف الدين ، وسيف الاسلام الحسين •

وقد دعا الاشفاق والخوف مما عسى ان يحدث عقب وفاة الامام يحيى ، الى ان يكتب احد العلماء الى جـلالته كتابا سنة ١٣٦٤ هـ• يحمله فيه الحجة والمسؤولية اذا ظـل صامتا ، ولم يقرر مصير الامة ، فيثبت الخلافـة « لسيف الاسلام احمد » ، ويحمل من يظن منه الخلاف حملا علـى الطاعة والولاء والمبايعة •

ولكن « الامام يحيى » ظل صامتا كأنه كان متأكـدا من حقيقة نجله الاكبر « احمد » ، وظلت التوجسات تعظم، وقامت خارج القطر حركة تناويء حكم الامام يحيى، وأيدهم اناس في الداخل ، وكانت الاشاعة الكاذبة في ٥ | ربيـع الاول سنة ١٣٦٧ هـ• بوفاة «الامام يحيى» وقيام حكومة جديدة يرأسها « السيد عبد الله الوزير » اماما •• صورة لـما سيحـدث ، وحـدقت الانظار ، وارتبكت الافكار ، واضطربت الظنون ، ودارت المخابرات بين « الحديدة »

و « صنعاء » ، وبين « اب » و « تعز » ، وبين « تعـز » و « صنعاء » ، ونصح الناصحون ، وتوجس المشفقـون ، ولكن الاقدار عجلت بقتل « الامام يحيى » رحمه الله في ٧ | ربيع الثاني سنة ١٣٦٧ هـ• وبايع الناس السيد عبـد الله الوزير » •• ودانت لـه لاول يوم ادارة « تعـز » و « اب » و « الحديدة » ، وتهافت مؤيدوه من الخارج على « صنعاء » تهافت الفراش ، وكادت اموره ان تتم ، وخـاب كل رجاء في امامة « سيف الاسلام احمد » الذي غـادر « تعز » الى « حجـة » وحيدا •• ولكن لـم تمض عشرة ايام حتى بدأ الموقف يتغير ، وثـار الجمهور اليمني يطالب « بالسيف احمد » اماما ويثأر « للامام يحيى » ، ولم تمض عشرة ايام اخرى حتى احدقت الالوف « بصنعـاء » وفي ليلة واحدة سقطت « تعز » و « اب » و « الحديـده » و «صنعاء» في ايدي الثوار ، وعلا هتاف الملايين « ياناصراه، يامتوكلاه » وعاد « الامـام احمد » الى « تعـز » مظفرا منصورا ، ودخلها وحيدا كما خرج منها ، والدهر يتلو على مسامع الكون هذه الآية :

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيـدك الخير ، انك على كل شيء قدير » •

وكان نصرا مكينا لم يعرف له التاريخ مثيلا •

وتقبل « الامام احمد » كل ما حدث بصدر رحب ، فحاكم الكثيرين ، وعفا عن كثيرين ، وأغضى عن كثيرين ، والقلة الباقية ينتظرها عفوه ، وكأني بكل شيء قد عاد الى مجراه الطبيعي ، وها انا المح طوالع السعادة واليمن والخير في كل افق ، والمساجين قد اخلصوا الحب لجلالة امامهم ، فهم يدعون له عقب كل صلاة بالتأييد ، ويشيدون بذكره ، والدعاء له في خطب جمعهم ، وفي صدور سائلهم ، وذلك هو المؤمل في الراعي والرعية ، وفق الله الجميع الى رضاه وخير البلاد (١) •

ان الحب الذي يحمله اليمنيون لامامهم لا يصوره بيان ، قد وهبوه ضمائرهم مخلصين ، مذعنين ، ومحضوه ودهم سرا وعلنا ، ولقد شاهدت في « سجني » ما يقضي بالعجب العجاب •

هنا في « قاهرة حجة » المنعزلة عن العالم ، يعمل « العمال » في اشادة بعض المباني الحكومية ، وكنت اشاهد رجلا منهم يتغفل «الشاويش» ويتسلل الى «البركة» فيشرب ويملأ جرته لاصحابه ، مع علمه بأن مقاربة ماء «البركة» ممنوع، يعاقب من يقدم عليه بلا أذن، وخصوصا ايام شحة الامطار ، ولكن ذلك « الشاقي » ظل ثلاثة ايام

(١) حررت هذا قبل عامين ، أي سنة ١٣٧٢ • وقد تحقق ما أشرت اليه •

او اربعة ايام يهتك حرمة القانون سرا، غير مبال بملاحظتي، وفي اليوم الرابع او الخامس ، بينما كان يهوي بجرته الى « البركة » ، سقطت « جنبيته » ـ خنجره ـ الى مقرها غائصة في الاعماق ، فانزعج « الساقي » انزعاجا كبيرا ، واقتربت منه لاواسيه فاذا به يقول :

« انا لله وانا اليه راجعون » هذا جزاء من يخون الله •

وظل في خوف لانه رأى في حادثته رمزا لغضب « الامام » عليه لمخالفته قانونه واوامره •

ان امة تبلغ الى هذا الحد في حبها لامامها ، لرهيبة جدا ، وان اماما يحتل من رعيته هذا المركز المكين لعظيم جدا •

وما كاد الامام احمد يتربع على عرش الخلافة ويرى « التركة السياسية » الضخمة التي خلفتها الاجيال لجلالته، حتى بدأ في تصريفها تصريف الخبير المحنك ، والقدير الموفق لم تربكه مشاكلها المعقدة ، ولم تحيره شبهها الغامضة ، ولم تدهشه ظلماتها الكثيفة •

مشاكل داخلية ، افتنت في تعقيدها العصور ، فنشأت مدمنة عليها العادات ، وتربت ممتزجة بها الارواح ، ولم تكتف الاقدار حتى صبغتها بالدم ، وضرجتها بالنجيع •

وشُبَه فكرية ظلت الاقلام السوداء تسكب عليها الحبر القاتم ، فضلّت عقول ، وزاغت قلوب ، وتلوثت ضمائر ، وكاد الهدى يندمج في الضلال ، والواقع يتلاشى في الترهات ، وصوت الحق المبين يتفانى في ضجيج الباطل الصخوب •

وظلمات اجتماعية تؤازر الفقر والجهل على بثّها ، فعشعشت فيربوع الشعب تفتك به وهو لا يدري، وتخنقه وهو لا يعلم ، واذا كان المتنبي صادقا في قوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة بالشقاوة ينعم

فان « الهبل » يكون اصدق منه لو تصرفنا ببيته المشهور فقلنا :

ان الشقا بالجهل عند الغافلين هو النعيم

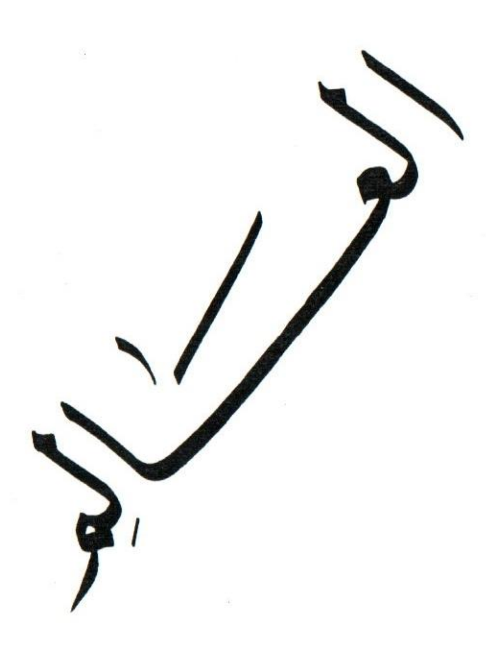
هذه هي « التركة » التي تسلمها « الامام احمد » فماذا كان •• ؟

لم يرتبك ، ولم يحر ، ولم يندهش ، وفحص كل ما امامه داء داء ثم بدأ بالعلاج ، ولوى سالفته عن صرخات المتهورين ، وصم سمعه عن ضجيج المتمردين ، ومضى بعزيمة حذاء في سبيل الاصلاح ، من اقرب الطرق واسهلها،

وابعدها عن كل وزر وفساد ، فاهتم بالمشاريع العامة كالزراعة والصحة ، والتعليم ، وتيسير المرافق الاجتماعية ، كتوزيع المياه وانارة المدن ، واصلاح الطرقات ، واشادة المستشفيات ، وتسهيل المواصلات الجوية والبحرية ، ومن يزر اليمن اليوم وكان يعرفها قبل خمس سنوات ، يرى التقدم الملموس في كل ما اشرت اليه •

وها هو كالفارس في ميعة حضره (اي في شدة جريه) يمضي في سبيل الاصلاح قدما ، والله يحرسه ، والاجيال ترقبه ، والامة تخلص له حبها ، وطاعتها ، وثقتها ، وكل عارف ينشد مع الشاعر الاديب ابراهيم الحضراني :

وطني لا عليك قد صانك امه
والقى عليك ظل أمانه
لك هاد من نوره ، لك سيف
يدفع السوء عنك ، من قرآنه
لك يا موطني سراة عليهم
رضي الله في قديم زمانه
هم دعاة الاله فينا وهم ما
برحوا اليوم حارسي اديانه
حملوا مشعل الهداية للخلق
وليل الضلال في عنفوانه



كـل ليـث منهـم يدافـع عنـا
كدفـاع الكريـم عــن صبيانـه

***

ايهـا المصلـح العظيـم ، اذا مـا
وقع الشعـب فـي عظيـم امتحانـه
انـت في المحـل غيثـه ، فـاذا مـا
كـان يـوم الوغـي فـليث عوانـه
آه لـو تسعـد القـوافي فـاشدو
ذاكرا مـا بـذلت في رفـع شانـه

سمة العالم الحقيقي رحابة الافق العقلي ، وحرية الفكر ، واستقلال الرأي ، فلا يضيق بخلاف ، ولا يتقيد بهوى ، ولا يخضع لتقليد . يستوعب اسرار الوجود في قلبه ، ثم يصرفها معارف وأفكارا وحكما ، ويستكنه مثل الحياة وقيمها بفكره ، ثم يخرجها للناس في معرض البيان الرفيع ، يبحث عن الحقيقة لذاتها ، ويحب الحكمة لسموها، ولا يضيق في سبيل ذلك بنصب او نقاش او جدال .

اما اولئك الذين يحصرون انفسهم في اقفاص الغفلة والجمود ، وينظرون الى الكون من ثقوب تعصبهم المشين ، متخذين من افكارهم الضيقة ، وعقولهم الفجة ، وقواعدهم الميتة ، مقاييس يسيرون بها العوالم ، فما وسعته كان حقا وصدقا واسلاما ، وما ضاقت به كان باطلا وافتراء وكفرا . اقول : أما هؤلاء فليسوا من العلم في شيء وان قتلوا زمنهم تحصيلا ودرسا وجدالا .

انا لا اقصر العلم على معارف فئة خاصة ، فان الحقيقة اكبر من هذا الزعم ... واعلم ان اكثر من يتعلمون من ابناء وطننا العزيز يسلكون طريقين متباينين :

(الاولى) تتنكر لكل قديم ، قد فتنهم زخرف المدنية الغربية فظنوا ان الغرب لم يتوصل اليها الا بالتنكر للمعتقدات الدينية ، والعلوم اللغوية ، والدراسات الفقهية،

وانهم بمجرد ما يتخلصون من ازيائهم ، وعادات قومهم ، وعلوم دينهم ولغتهم ، يصبحون متمدنين: أي يحلقون في الاجواء بطائراتهم ، ويدوسون الغبراء بدباباتهم ، ويحرقون الكون بقنابلهم الذرية ، وأما اسرار الصناعة والكهرباء ، وعلوم الكيمياء والطب ، وفنون الحضارة ، فانها اسهل من ان تتطلب جهدا او نصبا .. ؟ وحسبهم ان يتنكروا لكل قديم ليعلموا كل جديد .. !

هذه الفئة لا تراها الا متشدقة بحضارة الغرب وأفكار الغرب ، وقدسية الغرب . ولو درسوا تاريخ الغرب لعرفوا من اين اكتسبوا حضارتهم ، وكيف توصلوا الى هذه المدنية الجبارة ، وانهم ظلوا قرونا يدرسون علوم العرب القديمة ، ويترجمونها ويشتغلون بها ، وانهم يعلمون عن رجالنا وكتبنا ، وفلاسفتنا وعلومنا اكثر مما نعرف عن انفسنا .

والا فمن من هؤلاء المغرورين قد درس فلسفة « الكندي » او كتب « ابن رشد » ، او علوم «ابن سينا» ، او نظريات « الرازي » او كيميا « جابر » او معارف « البيروني » و « الهمداني » و « ابن خلدون » ، والغرب لم يَعتمد في حضارته المادية الا عليها وعلى امثالها من ثقافات المسلمين . ولم يكتف بالتنكر للقديم من العادات والاخلاق والقيم والعلوم . ؟

دع جهل هذه الفئة باللغة واسرارها وعلومها فانك

لتقف امام احدهم وتستمع الى تفيهقه وتنطعه ، فاذا سألته عن معنى لفظة لغوية ، او شرح نكتة ادبية او ايضاح مسألة دينية ، أو تبيين مشكلة تاريخية ، لوى عنقه صلفا وقال : هذه المسائل قد تركناها للجامدين ودفناها في اضابير الكتب الصفراء .

مهلا مهلا .. لقد شطيت بها عريضة ، وما هي العلوم التي تريد ان تخدم بها امتك وبلادك ودينك ؟

اهي الصحافة الرفيعة ؟ ام الحركات الخليعة ؟ ام التشدق بالالفاظ الخاوية من كل روح ، المجدبة من كل هداية ؟

والفئة (الثانية) : ترى الحياة مستيقظة وهي نائمة ، ومتحركة وهي جامدة ، ومشرقة وهي في ظلام ، أقامت بينها وبين معالم التقدم والسمو سدودا من الخرافات والاضاليل والتعصب والغفول ، فكل ما لم يذكر في كتبهم المحصورة كفر وضلال وعصيان ، وكل ما يتمتع به البشر من نعم المدنية حرام لانه من صنع الكافرين ، وطلب الحكمة من غير كتب الاباء والاجداد ضلال وفسوق ، والخير والاصلاح والاسلام في الجمود على ما نحن عليه ، وعدم التفكير في المستقبل وتقليد الاباء تقليدا اعمى ، ولا يجوز ان نضرب المثل في النحو الا بزيد وعمرو ، ولا يليق ان نعارض الفقهاء الاولين فيما حرروه واختاروه ، وحرام

ان يكون لانسان رأي جديد في تفسير آية او حديث او أثر من آثار الدين . وقواعد اصول الفقه يجب ان تبقى ميتة في كتبها واساليبها العقيمة ، وطرق دراساتهم ملتوية، يهتمون بالقشور ويفنون السنين الجمة ، فيما لا طائل تحته في الدنيا ، وما لهم في الاخرة من خلاق .

وبين هؤلاء وهؤلاء ، وعلى عرش الحق ، وتحت راية القرآن يقف دعاة الحقيقة والهدى ، ورجال الاصلاح والخير ، وأساطين العلم الصحيح . قد اشرقت قلوبهم بنور الايمان ، وسمت افكارهم بمعارف الحكمة ، وانصقلت ارواحهم باشعة اليقين .

هذه (الفئة الوسطى) لا تتنكر للقديم لقدمه ، ولا تهتم للجديد لحداثة منشئه .. بل تتخذ من النفع مقياسا ، فما كان نافعا احبته ، وشغفت به وأيدته ، سواء كان محدثا أو قديما ، وتزن ما تقرأ بميزان العقل المجرد فتزيفه او تؤيده ، وتنكره أو تثبته ، تمشي مع هدى القرآن الذي يطالب الناس بالتفكير والبحث ، ويرشدهم الى الهدى والخير العام ، ويحرم عليهم الجمود والتقليد وجميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

نعم ان صلتي بالامام الناصر نحوا من تسع سنوات كشفت لي منه عالما كبيرا ، وان الانسان ليعجب بتلك الالمعية ، التي لا تكاد تنسى ما قرأت او فهمت ، وتغوص

على مبهمات المعاني فتجلى دررها وتكشف غوامضها وتحل عقدها ، وتؤلف بددها وتصدر آرائها حافلة بصادق الفكر، وعميق الحكمة وثاقب النظر .

وكل من جالسه وناقشه يعرف الحقيقة جسدا . ولقد كان حوله نخبة من علماء اليمن ، وكان مجلسه جامعة علم وادب . ما شئت من شعر رائع ، ونثر رصين ، ومسائل فقهية ، ومناقشات نحوية ، وبحوث تاريخية ، ونظرات فلسفية ، وآراء في التأويل ، ولمحات في التفسير ، وأما في علم الحديث فانه يتفرد بحفظ مسنداته العالية ، وهو جد مبرز في علومه بشهادة الافذاذ من اهل العلم والفضل .

وقد اخذ العلم عن اكابر علماء اليمن ، واجازه كل من عرف تفوقه من الافذاذ ، وقد ترجم السيد العلامة المؤرخ محمد بن زبارة لمشايخه ولمن اجازه في كتاب خاص، كما ان السيد المذكور طبع « نظم اجود الاحاديث المسلسلة وشرحها » للامام احمد وهي من تأليفه ايام دراسته

بقفلة عذر سنة ١٣٤٦ ، ومنظومته في « حصر الشهداء » ، وكان طبعها سنة ١٣٦١ بصنعاء في كتاب . وقد قرظه زمرة من العلماء والشعراء، ومنهم القاضي العلامة عبد الرحمن بن يحيى الارياني الذي يقول من قصيدته :

بينا تراه في الحروب اذا طغت
ليثا يمثل صولة الكرار
تجتاح هيبته القلوب اذا به
في السلم يبدو قدوة الابرار
يبدو زعيم المسلمين بعلمه
وكماله وعطائه المغزار
يبدو زعيما في العلوم مؤلفا
يهدي الى الطلاب خير ثمار
لا الملك يشغله ولا اعباؤه
تلهيه عن ترصيف نظم درارى
يا سيد العلماء لا مستثنيا
احدا سوى المرموق بالاكبار
« يحيى امير المؤمنين » ابى سيوف
الدين رأس السادة الاطهار
افرغت في التأليف فكرا طالما
شغلته عنه ساسة الاقطار
وصرفت وقتا مفعما بمشاكل
في العلم شأن أئمة اخيار
فجزاك رب العرش خير جزائه
وبقيت محروسا من الاخطار

وآثاره الادبية ومنظوماته العلمية كثيرة ، وفيها اعظم برهان على تبحر فكره ، وسعة همته • وله « اختبارات »

حكيمة نظمها الاديب العلامة القاضي محمد بن عبد الله عاموة ، وهي متداولة مشهورة •

ان حبه للعلم هو الذي دفعه الى عظيم العناية به فأرسل البعثات ، وجلب المعلمين ، واشاد المدارس في عموم القطر ، ووعد بانشاء « الجامعة الناصرية » التي سنراها قريبا شمسا ترسل اشعتها العلمية على آفاق العالم العربي •

وانه ليمشي مع الزمن وظروفه مشي العالم الخبير والسياسي المحنك القدير ، وان عهده السعيد سيكون مشرق الامل وغرة التاريخ اليمني •

وشغفه بالعلم ايضا يدفعه الى اقتناء الكتب النفيسة في كل فن • وقد جمع مكتبة ضخمة ولكنها موزعة في « تعز » و « صنعاء » و « حجة » • ولو جمعت ونظمت لكان منها مكتبة تذكر بالمكاتب الاسلامية الكبرى المشهورة في التاريخ •

انني الفت النظر العالي الى ذلك معلقا عليه آمالا كبارا في نفع المجتمع اليمني والنهوض بمستواه الثقافي •


الشَّاعرُ

هل تتفق السياسة ، والادب بمعناه الخاص • ؟ واذا اتفقا فأيهما يطغى ، وايهما يضعف ويتلاشى مع توالي الايام ؟

أما السؤال الاول فجوابه : نعم • فكثيرا ما قرأنا من ادب الساسة والملوك والامراء ما يأخذ بالالباب ، نثرا وشعرا ، وخصوصا أئمة اليمن • فان لكثير منهم دواوين شعر تضم بين دفتيها أقوى الشعر وأرصنه وأحفله بروائع البيان •

ولقد كان « الامام الهادي » شاعرا ، وكان الامام عبد الله بن حمزة شاعرا ، وكان الامام شرف الدين شاعرا ، وكان الامام يحيى بن المحسن شاعرا عظيما •

وقرأنا في تاريخ االادب العربي عن شعر ملوك الاندلس وعن ادب المأمون والرشيد وسيف الدولة وأبي فراس ، ووزراء وملوك الاسلام ، ما ملأ قلوبنا اعجابا بهم، ولكن انحطاط السياسة العربية فيالقرون الاخيرة، وتسلط العجم على حرماتها ابعد الاكفاء والابطال ، وأرباب العقول عن مناصب الحكم ، فلا تراه الا في حوزة صبي، او ماجن، أو مخبول • فانصبغ الادب بصبغة اخرى ، وفصل بينه وبين ارباب العروش ، وبلاطات الخلفاء والملوك •

وهذا الحكم ينسحب على جميع الاقطار الاسلامية

ما عدا اليمن ، فان صبغة « الحكومة الزيدية » فيهـا ظلت صبغة اسلامية خالصة ، ليس فيها للوراثـة والرفاهية اي تأثير ، بل الحاكم فيها هو الكفوء الجـامع للشروط كمـا ستقرأ ذلك في فصل « الامام » •

ولهذا فانك قل ان تجد اماما من أئمتهم غير أديب أو شاعر ، أو خطيب مصقع ، أو كاتب مبدع ، أو مترسـل مبـين •

وأما الجواب على السؤال الثاني : فـان مما لا شك فيه ان الادب — مع ملاحظـة الموهبة الادبية الاصيلـة — صنعة • وكل صنعة مفتقرة الى طول الممارسة والتعاهـد والدربة •فاذا أهملت، أو اشتغل صاحبها عنها بصنعة اخرى ضعف شأنها ، وتقلص ظلها ، وقلت ثمرتها •

ومن أين للسياسي المشتغل بأعباء السياسة وهمومها، تلك الساعات السماوية حين يخلو الشاعر الى قلمه وقرطاسه وخيالـه يستلهـم الوحي مـن مناظر الطبيعة ، مستنطقـا مشاهدها الرائعة ، تاركا عالم البشر يموج في مشكلاتـه ، ويضطرب في نقائصه ، ويتفانى في صراعه ، يطل عليه مـن بعيد ، اطلال النجم المتلألىء ، أو كما قال الرافعي « اطلال مغفرة على الآثام • »

هناك تغمر انسانيته وجوده ، وتطمر روحانيته كونه،

ويمرح مع عرائس الاحلام ، في جو كله عطر وزهر وسحر، وفتنة وخيال ، والناس في حقائقهم يتعثرون وفي ظلماتهـم يعمهون •

من اين لذلـك الغائص بـين أوراق الحسابـات ، والدعاوي ، والشكاوي ، والمشاكل ، ووثائق المعاهدات ، وسلات المراسلات ، ان يتنفس في جـو الشاعر المـرح ، المجنح الفكر ، المتوثب الخيال ، حين يتهيأ لانشاء قطعة من الشعر تعثر عن وجدانه ، وتفضي بمكنون قلبه • ؟

واذن فلنقل عن يقين بأن السياسة تجنى على الادب ، وأن موهبة الشاعر والاديب تضعف وتتلاشى اذا اشتغـل بالعقد السياسية ومشاكلها وواجباتها ، واهمل شاعريتـه وموهبته الادبيـة •

وأما ان تساءلنا ايهما خير ؟

فان كلا ميسر لمـا خلق لـه • وكل فرد يؤدي واجبه في الحياة • وبذلك عمر الكون ، وقامت الانسانية ، وساد العمران •

ولكني أبادر فأقول مستدركا ان هناك من النوابـغ الافذاذ من لا يتقيد بأغلال القواعد المعروفة ، فيستطيع ان يكون سياسيا وشاعرا في وقت معا ، ويفرغ لكل حقيقـة جانبـا من قلبه الكبير • وذلك ما أعرفه عن «الامام احمد»

فان قيامه بأعباء الحكم لم يضعف من شاعريته ، وان قلل من منتوجاتها ، ولم يترك مزاولة النظم في فترة من فترات حياته لانه شاعر بطبعه ، اديب بغريزته ، ولو لم يهيئه الله لواجبه العظيم لظفر منه القرن الرابع عشر الهجري بأعظم شاعر في تاريخ الادب اليمني الحديث •

وشعره البديع يدل على ذلك • ولقد رأيته في مواقف كثيرة يمارس فيها النظم • فيقوله بيسر ، وينشىء في الساعات المعدودة ما لا يستطيع ان ينشئه الشاعر المتخصص في أيام •

ولله تلك الليالي الشعرية التي قضيناها في مجلسه الزاهر (١٣٦٠ — ١٣٦٦ — هـ•) نستلهم بنات عبقر أجمل الاشعار، ونشترك في نظم القصائد الاجتماعية، والحماسية، والتاريخية ، بيتا بيتا ، وشطرا شطرا ، فتسبق عبقريته خواطرنا ، وتضفي علينا من المعاني والافكار ، ما نطير به وراء كل خيال • وكل ذلك مدون محفوظ سنذكره في موضعه من سيرة « الامام احمد » •

وحبه للشعر والشعراء وتشجيعه للادب والادباء اكبر دليل على سمو ادبه ، ونقده للبيان ومعرفته بأسرار البلاغة ، وروايته لروائع الشعر القديم ، والحديث ، اعظم برهان على تقدمه في هذا المضمار • ومن يحضر مجالسه

الادبية يفهم حق الفهم نصيب ما أقول من الصحة والصدق •

هذا وقد سجلت في بعض قصائدي في بطلنا حبه للشعر ومعرفته به ، وأذكر ان صديقي الشاعر ابراهيم الحضراني لاحظ ذلك فقال لي يوما باسما :

— وماذا ابقيت لنا يا صديقي ؟

قلت : ماذا تقصد • ؟

— قال : اننا معشر الشعراء نفتن في صياغة القريض مدحا للملوك ، واشادة بمكارمهم ، ولا نبقى صفة خير ولا معنى من معاني السمو الا ونظمناه فيهم • فتكون النتيجة أن يقولوا : انا شعراء ، ونوابغ ، ونقنع رغباتنا بهذه الالقاب ، فاذا ما عمدا الى القابنا الخاصة ومدحناهم بها فماذا سيتبقى لنا يا ترى ؟

قلت : وما دعاك الى هذا ؟

قال : انك تصف « مولانا » في قصيدك بالشاعرية ، والبصيرة في النقد ، وتكرره متوسعا ، وفي ذلك خطر على مراكزنا والقابنا • فانصح لك بتركه ، ودع لهم القابهم ولنا القابنا • !

فضحكت كثيرا ثم قلت له : ولكن الحقيقة هي ما أقول فهل تنكرها ؟

قال : لا انكر ولكني الاحظ المصلحة .

قلت : ان المصلحة في ذكر الحقيقة ، ولقب الشاعر ليس بعزيز لدى ، ولست بطالب جدى ، ولم امدح انسانا ذا شأن غير « احمد » لاني رأيته مثلا للكمال ، وشعري فيه تسجيل لصفاته ليس غير .

قال : ولكني ضنين بلقب « الشاعر » فلنبقه ميزة لنا يا صديقي . ومولانا في غنى عنه ، ولنا في نواحي عظمته ما يضمن لنا الاجادة والتفوق .

قال ذلك بلهجة الرجاء المؤثر ، فوافقته . وكان تدبيرا مكتوما لم اعد بعده لوصف « مولانا » بالشاعرية ارضاءا لصديقي الشاعر . ولكني الان اكتب للتاريخ وهو فوق العواطف والرغبات والصداقات ، فليقرأ الحقيقة مشروحة ، وليسامحني اذا كنت قد كشفت السر القديم ، وليقرر معي للتاريخ شاعرية بطلنا العظيم .



الخطابة موهبة بيانية ، لا تكمل الزعامة دون توفرها في الزعيم ، فرب موقف يكون وقع الكلام فيه اقوى من وقع الحسام ، والكلمة تخرج من فم قائلها حاملة نفسيته وارادته ، فاذا كان قوي الروح ، صارم الارادة كان اثرها قويا صارما ، وان كان ضئيل الارادة قزم الروح سقطت الكلمة ، موهونة بضآلتها وقزامتها ، ولهذا قالوا قديما « كلام الملوك ملوك الكلام » . ولا يقصدون كلام اي ملك وراثي ، انما يعنون كلام اولئك العباقرة الذين ما كانوا ليتربعوا على العروش ويقودوا الشعوب لولا كفاءتهم وجدهم وكفاحهم .

والمثل الذي يقول « ما وعظ الا من متعظ » يؤيد ما نذهب اليه ، ويثبت ان لنفسية المتكلم اكبر اثر في كلامه بالنسبة الى المستمعين والقراء .

والخطابة بكل صورها الصق الموضوعات البيانيه بما نشير اليه ، لان الكاتب قد يزوق بيانه بالصناعة اللفظية والتأنق اللفظي ، وكذلك الشاعر ، اما الخطيب فلن يضمن التأثير على الجمهور ، الا بقوة روحه ، وصرامة ارادته وتمكن شخصيته ، ثم بصوته وتلوينه ، وبسلامة ذوقه ، وحسن تصرفه ، ولباقة تنقله ، وبديع اشاراته ، حتى يضرب بألفاظه على مواقع الشعور ، ويوقع بنبراته على أوتار

القلوب ، ويحيل المستمعين الى نفس واحدة تقف حيث يقف وتدور معه حيث دار •

وكم وعى التاريخ من مواقف كان للخطابة فيها القدح المعلى ، والحظ الاوفى ، كموقف « ابي بكر الصديق » رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عيه واله وسلم ، وموقف « سهيل بن عمرو بمكة » حين ارادت قريش ان ترتد ، ومواقف امير المؤمنين «علي» عليه السلام المشهورة، وموقف « طارق بن زياد » في شواطيء الاندلس ، دع عنك ما تخيله « شيكسبير » من خطابه صديق القصر المغتال و «بروتس » وتلاعبهما بعقول الرومانيين ، وما سجله التاريخ من خطب « نابليون » حين ودع جنده منفيا الى جزيرة « البا » ثم حين غادرها فارا فاتحا « لفرنسا » من جديد •

وما قرأناه حديثا عن خطب « تشرشل » وكيف كانت تسري في الشعب البريطاني كالتيار الكهربائي • وعن خطب مصطفى كامل وسعد زغلول وآثارها في نفوس المصريين ـ دليل على تأثير الخطابة في نهضات الشعوب •

والشواهد على ما نقول كثيرة وكل الناس منها على يقين •

« والامام احمد » من طراز الخطباء المصاقع • وان

انس لا انس صوته الجهوري الرهيب الذي سمعته اول ما سمعته وهو يدمدم فوق منبر « الجامع الكبير » بصنعاء••

كنت في الثانية عشرة من عمري ، وذهبت الى « المسجد الجامع » لاداء صلا ةالجمعة • وسرى بين الناس ان « ولي العهد » سيخطب ، فخلصت الى تحت المنبر ، واذ بي افاجأ بما لم تتحمله اعصاب طفولتي •

لم افهم كل كلامه بعقليتي الصغيرة ، لكني اذكر اني تأثرت تأثرا بالغا ، واستمرأت الصوت فوددت ان لا ينقطع، واستفزني في مواضع، وهزني في اخرى • وفهمت انه يزجر الحكام المرتشين ، ويتوعد القضاة الخائنين ، ويعظ العصاة الداعرين ، ويؤنب المطففين والمحتكرين ، وشاهدي الزور والمنافقين ، وينذرهم بانه سيقطع عليهم كل سبيل ، وسيأخذ للضعيف من القوي ، وللفقير من الغني ، وللمظلوم من الظالم • وكانت « صنعاء » حينذاك مغمورة بالنقائص • وبعد الخطبة كان استقراره نائبا عن جلالة الامام في ادارة المجلس العالي •

ان اسفي لكبير على عدم استيعابي لهذه الخطبة الرائعة ، ولكني اذا تذكرت ان خطبه التي كنت قد جمعتها بعد سماعها منه ، قد ضاعت بين اوراقي ومؤلفاتي ايام « الفتنة الكبرى » احمد الله الذي لا يحمد على مكروه

سواه • واعلل النفس بالاماني ، واقول عسى ان تهيء لـي ظروف المستقبل نقل ما احبه واصبو اليه •

وقد حدثني من حضر خطبته في الشام اثناء « الحرب السعودية » ، ووصف تأثيرها في الجند والقبائل ورؤساء العشائر، واندفاعهم بعدها غير مبالـين بالموت ، مطوحـين بكل ما امامهم من قوى •

ولا أزال اذكر موقفه الخطابي سنة ١٣٦٣ في عرض «تعز» يوم حفلة الجيش، بمناسبة عيد الاضحى، وملاحظته وهو يخطب تلكأ حامل العلم ، وتضايقه بحمله ، ووثوبه كالليث رافعا تلك الراية الكبيرة بيده في الجو ، ثم تدفقه في وصف الرايـة وواجبات الجندي نحـوها • ولا ازال اذكر صدى قولـه :

تحت هذه الراية لا ابالي ان اموت •

وفي سبيل رفع هذا العلم سأضحي بروحي ودمي •

لانها راية الجهاد ، راية الاسلام ، راية امير المؤمنين• وكما يتدفق النهر العذب الصافي من الاعالي فيهبط علـى ظمأ السهول رحمة وخيرا ، كانت كلماته الرائعة تخرج من فيه فتملأ الاسماع والقلوب رهبوتا وخشوعا •

لقد تمنيت يومذاك ان اكون في ساحة الحرب ، وان

يسفك دمي في سبيل تلك الراية ، وان تـذوب انفاسي ، وتحترق اعصابي وقودا في أتون الجهاد • ولمست مشاعـر الجند وهي تتفزز وتتوثب ، وقد غدا كل فرد جيشا كاملا في معنويته واعتداده وحماسته • فلـو كانوا في ميـدان كفاح لما وقفت امام ارادتهم اي قوة ارضية •

وليس كل من ملك ناحية الكلام بقادر على الخطابـة المؤثرة ، لان شروط اسلوبهـا ترجع الى نقـد الكلمـات وتهذيبها ، ونقـد الموضوع وتجويـده ، ونقد النفـوس ودراستها بسرعة خاطفة ، اكثر مما ترجع الى قوة العارضة وشدة الاندفاع وكيل الجمل بلا حساب •

فالخطيب المصقع هو القوى العارضة الدقيق الملاحظة في وقت معـا فيلاحظ مشاعر المستمعين واتجاه رغباتهـم وملامسة المعاني لارواحهم •

ورب خطيب تسمعه يهز الكلام هزا لا يتلكأ ولا يتعثر ولكن سرعان ما تمل الاصغاء اليه، وتنبو بذوقك عن سماع خطابته ، ولا تصبر الجماهير على طول هذيانه ، بل وسرعان ما تظهر عليهم علائم الضجر والملل والنفور •

وقد تراهم امام خطيب آخر مأخـوذين مسحورين لا يحسبون للزمن ولا للظروف ولاللحياة اي حساب •

اذا قام فيهم ، زاجرا او واعظا او مذكرا ، بشيرا أو نذيرا لا يملون الاصغاء اليه ، ولو طالت مناحي قوله ولا تنبو اذواقهم عن سماع خطابته ولو توسع في البيان .

والسر في ذلك روح الخطيب وقوة شخصيته ثم خبرته بنفسية سامعيه ، واتصاله العميق بخواطرهم ومشاعرهم ، واحساساتهم ،ثم ايجازه حين يكون الايجاز حزما ، واسهابه حين يكون الاسهاب عزما .

الخاتمة

حين ينتهي نظر القاريء من الفصول السابقة سيغمض عينيه ويستسلم لافكاره وقتا قد يكون طويلا ، وقد يكون قصيرا ، شان كل قاريء مفكر مع اي كتاب خطير •

ترى هل استطيع ان اتصور خواطر القراء على اختلاف جنسياتهم ومعارفهم ومشاربهم ، واهوائهم ، فاناقشها معهم لعل نقاشي يولد لهم خواطر اخرى ، يتدرجون بها الى حرم الحقيقة فيدخلونه آمنين •

ثم هل لي حق في تصور تلك الخواطر ؟ وهل لي حق في مناقشتها ؟ وكيف سيكون موقفي عند قوم ، وكيف سيكون عند آخرين ؟ •

هل سأحسب فضوليا ؟ ام مرشدا ؟ أم متهما ؟ ام محاميا ؟ (١) •

ليكن كل ذلك ، او بعض ذلك ، او لا يكون شيء مما اظن • فالذي لا شك فيه عندي ، ان هذه خاتمة كتاب خطير ، والذي لا شك فيه عندي ايضا ، ان لي الحق في مناقشة كل ما اتصوره من خواطر الشر او الخير ، والحق أو الباطل ، والهدى او الضلال ، لاني مؤرخ ، والمؤرخ

---

(١) عند كتابة هذه السطور منذ اثني عشر عاما لم تكن قد دخلت في قاموسنا الفاظ «الرجعية» و«التقدمية» و «المد الثوري» و «الذنبية» وغير ذلك •

قـد يكون متهما حينا ، وقـد يكون مدافعا حينا آخر ، وواجبه المقدس في اتهامه ودفاعه تحري الصدق والامانـة والحق ، فلا يكون مداجيا ولا متحيزا ولا كاذبا .

(١) من هذا الذي يهذرم ولا يكاد يبين ؟ وتقـذف لسانه باللعنات ، دون ريث ولا ورع ، وقد حميت اعصابه ، وهاجت عروقه ، وانتفخت أوداجه، واستعر دمه، وصفحات الكتاب تحت رحمة اظافره وانيابه يجهد فيهانهشا وتمزيقا.؟

هو رجل امتلأ جوفه حقدا وبغضاء ، فعمي عن كـل حقيقة وامسى لا يرى شيئا الا مجاهـل حقده الاسود ، ومغاور بغضائه المظلمة ... لو جئت بالادلة ناصعة كالنور، وحشرت الجن والانس ، والملائكة عليها شهودا للوى عنقه معاندا . وقال : هذا محال لا يمكن ان اصدق ابدا .

ومناقشة مثل هـذا القاريء لا تجدي ، ومعالجـة دائه العضال مستعصية ، لان عقله قد طاش ببغضائـه ، وانسانيتهقد خوت بحقده، وانقلبذئبا بشريا، لعناته عواؤه واعراض الناس غذاؤه ، ولا يبالى بعد دلك بامة ولا وطن، ولا دين وان ملأ فاه بالفاظها الضخمة متشدقا .

وهل تجتمع الوطنية والحقد ؟ وهل تلتئم البغضاء مع الدين ؟ .. الحقد على مواطنيك ، وبغض ابناء جلدتك . ! أيجوز لـه ان يركز مصالح امته ، وكرامه وطنه ، وواجبات

دينه على هواه الشخصي ، والى ان يثأر لمالـه او لمركزه ، أو لاخيه ، او لابيه ، او لقريب من ذويه ، يتجاهـل النفع العام ، والوطنية الحقة ، والدين الحنيف . ؟

حكّم عقلك ـ يا صاح ـ وانظر الى الامور متجردا عن كل هوى ، وصدر حكمك على ما تراه خالصا لوجـه الحق والوطن ، وان كان قد نهب مالك ، او سفك دم لك ، في معركة فتنة طحون ، فاذكر دماءً تبيغت وفي ذراتها الملك يمـور ، واذكر اموالا طـاحت ، وما هي الا خلاصة عرق ودموع ، ومعرة الجيوش ، وزوابع الفتن طامة تجتاح كـل ما أمامها ولا سيما اذا هيجتها الظروف العمياء ..

وما هو الواجب علينا نحن ابناء « اليمن السعيدة » رغم كل ما جرى ، وبعد كل مـا جرى . ان كنا حقا نحب الخير لبلادنا ، ونريد لها السمو والسعادة ؟

اقول أن واجبنا ان نتخلص من موبقات البغضاء ، وان نتطهر من اوساخ الحقد ، وان ندوس الماضي بأقـدامنا ، ونمضي صفا واحدا نحو الامان والخير والسعادة .

هذا الواجب حتـم على المسودين والسادة ، على المواطنـين والحكام ، والدين يقضي بـه ، وهو منطـق الانسانية والوطنية في كل عصر وجيل ، وعند كل امة .

واذا كان جلالة « الامام احمد » قـد اصغى لصوت

الواجب الوطني ولباه ، وتناسى كل شيء • فلماذا يشيح الاخرون من المواطنين جانبا ، وما هم بأشد نكاية ولا اعظم رزية ، ولا اصيبوا بما أصيب به •• ولولا زهدي في اثارة جراح الماضي ، لاوضحت ما اقصد بكلمات دامية تستثير الشجون •

يا قوم لا تسلموا للحقد انفسكم
فيأكل الخير فيها والهدايات
ولا تصيخوا الى صوت الهوى وثقوا
بناصر الدين هدام الضلالات

(٢) ـ وهذا قارىء آخر تلهى منه بصفحات ثم اسلمته يمناه الى يسراه الى درج مهمل ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ولسان حاله يقول : مسكين الكاتب ، شغل نفسه فيما لا يفيده ولا يكسب منه نقيرا ، ولو صنف في الوعظ، والارشاد، او في علم من علوم الدين، لاهتدى وفاز وسلم من القيل والقال ؟

والامه اليمنية مبتلاة بكثير من هذا النوع البائر من البشر ، اولئك الذين يتصورون الحياة معركة عيش لا غير ، ولا قيمة عندهم للمثل العليا ، وقد انطبقت افكارهم على صور الحياة المظلمة ، فلا يفهمون اسرار التقدم والتطور، ولا يحاولون التخلص من قيود اوهامهم وخرافاتهمفيمشون مع ركب المجتمع الانساني •

ثم انهم يشعرون بالهوان والنقص ، فلا يؤمنون بعبقرية يمنية ، ولا بكمال يمني ، فيسمون النبوغ تقليدا، والتجديد فضولا ، وكأن القدر قد كتب عليهم البقاء في حدود نقصهم، وجهلهم، وحرمهم الخير ، والرقي والكمال.

لا • لا • يا قوم لقد ماتت عهود الجمود والركود . وانتم اليوم في عهد سعيد شق به جلالة « الامام احمد » ظلمات القرون ، واذا لم ترقوا معارج الكمال التي نصبها ومهد سبلها لكم بخطوات ثابتة ، فستظلون في قيودكم الوهمية تتعثرون ، أما ابناؤه البررة ، وجنوده المخلصون ، فسيطيرون وراء قائدهم الاعلى ، الى اسمى مراتب المجد والحرية والفخار • وسيجتازون مجاهل الزمن المظلم مستنيرين بهدى دينهم ، ومشاعل اخلاصهم ، وما هذا الكتاب الا قبس من أنوار العهد الجديد ، ولبنة في بناء تاريخه الضخم الحافل بكل جلال وجمال •

اهديته لعصور النور رمزا لعهد سعيد ، وقدمته بين يدي الاجيال ، ذكرى لجيل مجيد •

فانفضوا عن عيونكم غبار الجمود ، واقشعوا عن افكاركم ضباب الركود ، وقولوا للامم ان عرضت عليكم كتبها عن ابطالها الصناديد ، وعباقرتها الافذاذ ، ها ؤم اقرأوا بطلنا الخالد في صفحات صادقة لا زيف فيها ولا تجديف •

(٣) ـ وأرى على ضوء اشعة الفكر قارئـا مضطرب العقل شارد اللب ، ساهم النظرات : ظل سنوات يقرأ مـا يكتبه الطائشون ، ويلفقـه المتمردون ، فتأثـر بما قرأ ، وتشوش فكره ، وتلوث عقله ، فلما طالع فصول الكتـاب هذا حار بين تيارين ، واضطرب بين نجدين ، وارتبك بـين طريقـين .

وما هو الا فرد مـن انصاف المثقفين ، الذيـن ترى صفات بعضهم في فصل « العالم » هؤلاء المغرورون علاجهم سهل ميسور ، ومصيبتهم انهم خرجوا بعقولهم وارواحهـم عن محيط وطنهم ، وزودوا هذه العقول بخيالات الشبـاب الطائش ، واباطيل الثقافة الاجنبية . البعيدة عن نـوازع بلادهم ، وعواطف قومهم ، وحقائق محيطهـم ، وخسروا روحانية دينهم، ومثل عروبتهم، وقوميتهم، وشغفوا بالزائف من الادب ، والفن ، والعلم ، والسياسة ، والوطنية ، لا لانه ممتع ولا لانه ممتاز ، ولكن لانه رخيص سهل لا يكلفهم عناءا ولا بحثا ولا عمـلا .

انهم امثلة حية للكسل والرقاعة ، والا فقل لي بربـك ماذا قدموا لأُمتهم من خير؟ وماذا شادوا لدينهم من مجد ،؟ وماذا مهدوا لوطنهم من اصلاح ؟ .

اقسم ان « خزّازا » يقضي ليله ونهـاره في خصف

نعال بني وطنه ، خير الف مرة ، من شاب يدعي الثقافـة وهو عاطل من كـل عمل نافع ، مقصر في كـل واجب ، لا برهان له على وطنيته ، الا كلمات تقد زائفة يتشدق بها ، او حكاية اقوال صحف مغرضة يرددها ، ويطبق صحيفة ليلـه على صحيفة نهاره ، ولم يسجل فيها الا تلك الخزعبلات ، والدنيا من حوله تدور بحقائقها وهو عنها جد مبتعـد لا يكاد يفهم ما يجب له أو عليه .

سيقف هذا الفريق من هذا الكتاب موقف حيرة لان واحدا منهم لا يستطيع ان يدفع حقيقة من حقائقه ، ولكنه سيتربص وينتظر ما عسى ان يقول فيه اولئـك المتمردون فيجاريهم لا لانهـم قالوا ما كان يعرفـه حقا ، ولكن لان اعصابه قد أدمنت على خرافاتهم كما قال شوقي، رحمه‌الله:

غلبـوا علـى اعصابهـم فتوهـموا
اوهـام مغلـوب علـى اعصابـه

اني احذر هذا الفريق من موبقات الاضاليل وأُلفت نظره الى اعادة ما قرأ وتـدبره ، واستكناه حقائقه ، ثـم ليرجع بعد ذلك الى تصحيح اخطاء عقله وفكره بـدراسة التاريخ اليمني من اقدم عصوره ، وبدراسة النفسية اليمنية وعاداتها وتقاليدها المتأصلة جذورها في اعماق حياتها .

واقرأ معي بامعان كلمة حكيمة نقلتها من مجلة الهلال

ذو الحجة سنة ١٣٧٢ هـ• سبتمبر ١٩٥٣ م• هذا نصها :

« ان كثيرين يسيئون الى بلادهم ومجتمعاتهم وذويهم بتعود النقد الدائم ، وابراز العيوب والنقائص ، وقد يكون النقد صحيحا ولكن هناك الى جانب المآخذ محاسن ومزايا ليس من الخير ولا من العدالة اغفالها • كما ان العيوب المنتقدة نفسها يمكن اصلاحها بوسائل كثيرة من غير ابرازها ، فاذا هي برزت فقد تستعصي على الاصلاح والصلاح •

ان صاحب العمل يبحث دائما عن اناس يستطيعون ان يعاونوه ، وانت لا تستطيع ان تعاونه ما دمت تعتقد في قرارة نفسك انه احمق ، وان نظامه خاطىء ، كما ان معاونتك مهما تكن كفاءتك لن تأتي بثمرتها المرجوة ، ما لم تكن متحمسا له ، شاعرا نحوه بالمودة والعطف » •

ويجب ان نعلم أن الطفرة لن تعود على امتنا بالخير ، وان النهضة بأي امة تفتقر الى الحكمة والرشاد ، والا تتج عنها افدح الاخطار وما اصاب بعض الامم العربية والاسلامية ، في مستهل نهضاتها نتيجة لتهور بعض ابنائها ليس ببعيد عنا ، ولا نزال نرى ونسمع آثاره الى اليوم •

ثم ما هو مقياس التقدم في الامم ؟ لعل الاستاذ

الفيلسوف عباس محمود العقاد ، ابرع من حدد هذا المقياس بقوله (ص ٩ « روح عظيم ») :

« ان مقاييس التقدم كثيرة ، يقع فيها الاختلاف والاختلال ، فاذا قسنا التقدم بالغنى ، فقد يغنى الجاهل ويفتقر العالم، واذا قسناه بالعلم ، فقد تعلم الامم المضمحلة، وتجهل الامم الوثيقة الفتية ••• الا مقياسا واحدا لا يقع فيه الاختلاف والاختلال ، وهو مقياس « المسؤولية » واحتمال التبعة ، فانك لا تضاهي بين رجلين او امتين الا وجدت ان الافضل منهما هو صاحب النصيب الاوفى من المسؤولية ، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته، والاضطلاع بحقوقه وواجباته ، ولا اختلاف في هذا المقياس كلما قست به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد ، أو بين الهمجي والمدني ، أو بين المجنون والعاقل، او بين الجاهل والعالم ، أو بين العبد والسيد او بين العاجز والقادر ، او بين كل مفضول وكل فاضل ، على اختلاف في أوجه التفضيل » •

ولعلي قد اطلت مناقشة هذا الفريق ، ولكن كرامته علي وحرصي على السمو به هو السبب، واخيرا الفت نظره الى العلوم الرفيعة والآداب السامية ليرشف من كؤوسها ما يروي صدى روحه وينقع غلة فكره ويهديه الى سواء السبيل :

يا قوم إنْ تقرأوا تاريخ امتكم
تروا سبيل الهدى والنفع للعرب
لا تحسبوا شعبكم سهل القياد اذا
اردتمو ان تقودوه الى العطب
عروبة « اليمن الكبرى » مسجلة
في صفحة الدهر ترغو بالدم الشرب
ودينها روحها الغالي ، ومقودها
في كف منقذها من مخلب النوب
المجتبى « ناصر الاسلام » من شهدت
له البرية بالتبريز والغلب
وقد حيا شعبه بالخير مجتهدا
وسجلت نصره الايام بالذهب

(٤) ــ وهذا قارىء ماكر ، يودع كل جملة من جمل الكتاب ببسمة صفراء ، وهو من تلك الفئة ، التي تتظاهر بالاخلاص ، ولهم اعمال دون ذلك هم لها عاملون (١) ، وسيحاولون التقليل من قيمة مؤلف الكتاب ، لا من قيمة الكتاب نفسه ، ويشككون في اخلاصه وصدقه ، لانهم لا يريدون ان يعتقد حاكم أو محكوم في غيرهم صدقا واخلاصا ، ودأبهم دائما بث السموم الفتاكة ، والدس

(١) لقد ظهرت اعمالهم في ليلة ٢٦ ايلول ١٩٦٣ ، ولكنهم خابوا .

والكيد والتفرقة ، والتشكيك في كل ما يجلب الخير والنفع العام ، وقد كشفتهم أوزارهم ، واصبحوا سخرية الساخرين « قاتلهم الله انى يؤفكون » .

(٥) ــ اما اولئك « المغفلون النافعون » الذين يفضلون الصمت ، والهدوء والسكون ، ويرون فيه الخير لهم ، ولمن يحبون من الناس ، ومن اجل اشفاقهم الموهوم ، يريدون ممن يحبونهم ان يلتزموا الحياد والصمت .. فلا يشيدون بتمجيد انسان ولا ينقدون احدا فقد قال لي بعضهم ... « ما اليك اسكت لك ، لا تمدح احدا ولا تذم احدا ، اما كفاك ما قد قاسيت ؟ » ولكني قلت له وأقول لامثاله : ان الدافع الذي دفعني لتأليف هذا الكتاب ، وسيدفعني لتأليف امثاله عن عظمائنا وعلمائنا وادبائنا ، اسمى وأجل من ان يكتب برغبة في عيش ، أو في ارضاء زيد او اغضاب عمرو ، .

انه واجب مقدس احس في اعماق نفسي بأني اذا لم اقم به سأكون ــ كغيري ــ مقصرا مخطئا ، امام ضميري وامام وطنيتي ، وواجبي . واذا كنت تسخر من هذه الكلمات ، ولا تفهم مدلولها ، فاني انا افهمها . ثم لا داعي ايها « المحترم » للاشفاق والخوف ، ولا يهولنك ما يدور في رأسك من تاريخ وحوداث بعيدة أو قريبة ، واقرأ الكتاب

مرة اخرى او مرتين ، وسوف ينال اعجابك وتقديرك كما اظن .

(٦) ـ اما المواطن العربي من غير اليمنيين فسيقف جد مغتبط بهذا الكتاب ، ولكنه سيضطرب في تشريح موقف ـ المعارضين ـ ان كان قد اهتم بما يكتبون او اطلع على ما يقولون .

واذن فواجب على شرح ما قد يخفى على الكثير ممن لم يفهموا سير حوادث اليمن من سنة ١٣٥٥ هـ الى يومنا هذا .

في بحر سنة ١٣٥٥ هـ او ١٣٥٦ هـ عقدت عدة شخصيات يمنية كبيرة ، مجلسا خطيرا « بتعز » تحدثوا فيه عن مستقبلهم ومستقبل بلادهم ، وكان لكل فرد منهم هوى وارادة ، ولكنهم كانوا جميعا يخافون شخصية كبيرة ، يشعر كل واحد بالضعف أمام قوتها الرهيبة . فكان ذلك الشعور سببا ألف بينهم وجمعهم على تفكير واحد .

بحثوا في المجلس الذي عقدوه مشاكل المستقبل وماذا عسى ان ينزل عليهم ، لو قبض على زمام الحكم ، ذلك الشخص القوي الرهيب ، فأجمعوا على ان زعاماتهم ومناصبهم ستتلاشى حينذاك ، وسولت لهم اطماعهم تبرير موقفهم هذا بأن البلاد ايضا ستشقى ، وان واجبهم الديني

يقضي عليهم بتخليصها من ذلك الخطر الداهم .

ولكن .. ولكن .. في يد من يضعون مقاليد الحكم . والى من يسندون واجباته الكبيرة ؟

كل واحد منهم يريد ان يكون هو الحاكم، وكل واحد منهم يهوى ان يصبح في يوم ما ، اماما ، وكل واحد منهم لا يطمئن الى الآخر كل الاطمئنان .

وقبل ان استرسل في البيان ، ارى ان اصرح باسماء المتعاقدين أو بعضهم، واصرح ايضا باسم الشخصية الرهيبة التي يخافونها .

اما المتعاقدون في ذلك المجلس الخطير ففي مقدمتهم السيد عبد الله بن احمد الوزير ، والامير علي ابن عبد الله الوزير ، والامير سيف الاسلام الحسين ، والسيد علي بن حمود شرف الدين، واما الشخصية التي يرهبونها فهو «ولي العهد سيف الاسلام احمد » .

وقد تضاربت الآراء في حقيقة ما قرروه في مجلسهم . والمؤكد انهم توزعوا اليمن اقطاعيات . ويقول البعض انهم اتفقوا على ان يبايعوا السيد عبد الله الوزير بعد وفاة جلالة الامام يحيى ، وتعهد كل منهم بحفظ ما تحت يده من مال ورجال ، وبذل كل قوة وجهد عند اللزوم ، وتمهيد السبل للوصول الى غايتهم الخطيرة الوحيدة ، وهي

الوقوف دون وصول ازمّة الحكم الى يد سيف الاسلام « احمد » •

لم يخف هذا المجلس على جلالة « الامام يحيى » ولا على «ولي العهد»، والروايات لاتكاد تتفق على كاشف هذه المؤامرة الخطيرة • وان ظن الكثير انه « حسين الحلالي » •

فهم جلالة الامام يحيى نوايا « القوم » ، ولكن دهاءه السياسي ، كان عقدة امام كل فكر جبار • فاتفق بساعده الاقوى « ولي العهد » ، وقرر ارساله بصورة حكيمة الى « تعز » واميرها حينذاك الامير علي الوزير ، رحمه الله وله فيها حول وطول •

ونفذ المشروع بلباقة ، وانتهى الامر بعزل السيد علي الوزير ، واحتلال « ولي العهد » لمركزه الخطير ، الذي كان القوم يعلقون عليه آمالهم الجسام •

ولم تمض سنتان حتى عزل السيد عبد الله الوزير عن امارة لواء الحديدة ، واحتل مركزه سيف الاسلام عبد الله• وبدأ الصراع تحت حجب الخفاء بين الراغبين في الحكم والسيطرة ، وبين مَنْ ازمة الامور في ايديهم، وفي مقدمتهم سيفُ الاسلام « احمد » (الامام احمد) •

اما اولئك فلجئوا الى تطعيم الأفكار برغباتهم ، وبث

الرعب في القلوب ، وخلب النفوس بالوعود الرغيبة •

وأما « ولي العهد » فمضى في سبيله واثقا بنفسه ، موثقا صلته بأبناء شعبه . مستعدا لليوم الموعود بقوة لا تدور في خلد انسان •

وهناك فئة لعبت دورا كبيرا في الدس والتهييج ، او في التحبيذ والتزيين والموافقة على القرارات ، ولكني اعرض عن ذكر اسمائهم او اسماء ابائهم ، لانهم لا يحبون ان تذكر رغم تغير وجهات نظرهم واخلاصهم للعهد الحاضر . فمعذرة الى التاريخ •

وكانت الاطماع الخارجية تحوم وتدور في تلك الظروف، ودارت محادثات بين «عدن» وبعض الشخصيات اليمنية، وادلت ايطاليا بدلوها، وكان دلوا مفعما بالموبقات، ولكن الحرب العالمية الاخيرة ، اندلعت وشب اوار لهبها شديدا ، فألهى القوم بأنفسهم •

كل هذه الاسباب هيأت السبل ومهدت الطرق ، بوسائل مباشرة وغير مباشرة لفئة من الشباب المثقف، دفعها أمل خلب ، وشعور طائش ، وخوف مقلق الى النزوح الى «عدن» سنة ١٣٦٣ هـ • ومطالبة الحكومة اليمنية باصلاحات شعبية • وكانت لهجتها قاسية ، لا تتفق مع سياسة القرآن الذي يقول « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة

الحسنة » ، فلم تجد نفعا في الداخل ، ولم تحرك الا مشاعر بعض المثقفين الطائشين .

واستمرت دعوتهم عاما ، ثم تلاشى امرها ، وعاد اكثر رجالها الى وطنهم آمنين ، ولم يبق الا الاستاذ احمد محمد نعمان ، والقاضي محمد محمود الزبيري ، ابقاهما الخوف لا سوى .

وبعد عامين أي سنة ١٣٦٥ ، حدث ما لم يكن في الحسبان خروج سيف الاسلام ابراهيم بن جلالة الامام يحيى مغاضبا والتحاقه « بعدن » ، وانضمام جماعه من اليمنيين في الخارج الى صفه ، وتأسست « الجمعية اليمنية » يرأسها « الزبيري » و « نعمان » ، وصدرت جريدة « صوت اليمن » . وتبلبلت الافكار واغتنمت تلك الشخصيات الكبيرة الفرصة ، فغذت تلك الحركة بالمال والوعود ، وانتهى الامر باغتيال الامام يحيى حميد الدين ، وقيام حكومة الوزير . وحزب «الامير ابراهيم» . ثم وقع الجميع في قبضة رجل الموقف « ولي العهد » ـ الامام احمد ـ وكان ما حكيت بعضه في الفصول المتقدمة .

إعترافات

القاضي محمّد محمُود الزبَيري

هذا موجز لحركة الخارجين على الامام يحيى من الفها الى يائها . وكنت احب ان ابين رأيي فيها بجلاء وتفصيل، لأني كنت في يوم ما ممن تأثر بمؤثراتها ، ولكنني سأدع الفرصة لرئيس الجمعية اليمنية الكبرى ـ سابقا ـ القاضي محمد محمود الزبيري ، لأنه سيكون اصدق قولا عند قرائنا المثقفين باعتباره لا يزال خارج البلاد .

فأنقل كلمة حررها الى زميله الاستاذ احمد محمد نعمان ، ونشرتها جريدة النصر في العدد (٤ سنة ١٣٦٩ هـ) وهي وثيقة تاريخية هامة قال :

« أخي لست ادري والله ماذا أكتب اليك بعد ان وضعت الاقدار بيني وبينك هذا القدر الهائل الضخم من اهوالها ومحنها ومبشراتها،لأن الاقدار في هذا الحدث الضخم صممت على ان تضعنا بحذافيرنا بين يدي امامنا العظيم وان تجمع له عناصر الظفر من اشتاتها وان تتم له النعمة حتى لا يبقى له عندها اي طلب ولا اقتراح .

يا أخي تالله اني لم أنم بعدك على فراش وثير ولم أنل ذرة من الخير انت منها محروم ولا كنت منطلقا وانت سجين ولا ساليا وانت حزين، ولم تكن نجاتي في الحقيقة الا صورية كنت فيها كاللفظ بلا معنى وكالجسم بلا روح وكالجمجمة الفارغة من دماغها، وكانت نجاتي لا تختلف عن سيارة فقدت قائدها أثناء السير فهي معرضة لان تصدم بصخرة او تقع في هوة، غير ان اهون الخطوب عليها ان تقف وان تتعطل وهذا هو الامر الذي كان .

ان سلامتي لم تكن في الخروج من اليمن والاحتفاظ بحياتي فهذا شيء لا قيمة له، وان الفوز الحقيقي هو في ان الله هداني الى النهج الواضح والطريقة المثلى التي نستطيع ان نكسب بها عطف مولانا امير المؤمنين ايدهم الله وايقظني الله بمعجزة من خطر السير في الاحلام الى ما لا يغنى .

لقد كتبت اول كتاب الى مولانا صاحب الجلالة ايده الله اعلن فيه الولاء واطلب منه الاستبقاء وارجوه ان يعتبرني اسيرا معك والى جانبك، وكنت افهم بطبيعة الحال ان القلب الذي يسترجع العطف علي وعليك لا يكون الا قلبا كبيرا واسعا ، وقد حقق الله الامل وكانت تلك النظرة مخلصة والحمد لله، فها نحن الان وجميع اليمنيين في كل مكان ننعم بعيد البشرى الكبرى بعد ان علمنا بحلم مولانا الواسع الى هذه الدرجة التي ما كانت تخطر على بال احد.

انني وانا من أشد الناس فرحا لم يكن فرحي ناتجا عن خلاصكم فقط بل لذلك ولأنا بهذا التسامح كأنما عثرنا على حكومة اخرى غير التي كانت في أوهامنا وقد جاء هذا الفوز على يد من نحبهم ونجلهم ولا نطلب سواهم .

ولا تظن يا اخي ان لنا او لأي مخلوق في هذا تأثيرا أو فضلا ولكن امير المؤمنين يعمل عمله لنفسه ويوزع من ضميره فيما بينه وبين الله لا ينظر الى الناس ولا يخطرهم له على بال ، وقد شاء ان يمسح الدموع وهي طرية ويعالج المحنة وهي في عنفوان شدتها وحرارتها ، لانه علم حفظه الله ان المحنة لو طالت لاتسعت جراح المنكوبين وتعاظمت خطوبهم وصعب علاجها واكتسابها .

لقد بهرت الناس جميعا هذه المفاجأة الرائعة وأذهلت عقولهم وملكت عليهم اسماعهم وابصارهم ، فهي تدل دلالة قاطعة على تطور هائل في عقل الدولة ، وكل من سمع بهذا النبأ العظيم وعنده ذرة من الانصاف يؤمن ايمانا قطعيا بان الحكومة الناصرية المظفرة ستقوم باعمال عظيمة مجيدة بعد هذه الخطوة، وان النوايا الحقيقية لصاحب الجلالة التي حالت الايام الماضية بينه وبين تحقيقها قد أعلنت عن ظهورها وبرهنت على نفسها بهذا المعجز المستهل البارع .

اما المزايا الذاتيه الشخصية لصاحب الجلالة التي

كشف عنها هذا التسامح فهي الشجاعة والجرأة وعدم المبالاة والقدرة العجيبة على كظم الغيظ وضبط النفس، والحكمة، والدهاء وبعد النظر ، وسلامة التفكير ، واغتنام الفرص ، ووضع الامور في مواضعها ، وابعاد أثر العاطفة عن المساس بوجه الرأي، والتدبير ، والفقه الواعي العميق لنفسية اليمن السعيدة، فهذه مفاهيم لمعنى هذا التسامح وهو شيء أبلغ من كل كلام ومن كل دعاية ، لانه عمل ناطق بذاته وان حقيقة الشمس جاءت من نورها وهو اكبر دليل على وجودها وعلى ما ينطوي عليه ظاهرها وباطنها .

وقد اقنع مولانا ايده الله كل ذي عقل بانه يستطيع ان يعفو ويتسامح عن الماضي وينساه نسيانا تاما مهما عظم وجل كما انه يستطيع بعد اليوم ان يستميل اليه كل خصم او شارد او نافر ، لانه قد برهن على انه يملك قدرة العفو الكريم والصفح الجميل الى حد مدهش . وهذه العناصر التي صدر عنها هذا التسامح هي بعض الصفات وهي قدر كبير من الفضائل تجتمع في شخص عظيم من العظماء ومن هذه الصفات ما تكون بمفردها كافية لان تكوّن شخصية العظيم فكيف بها مجتمعة .

ان علماء النفس والاخلاق يقررون ان فضيلة ضبط النفس، هي رأس الفضائل كلها، وانها اذا وجدت في شخص صيرته عظيما ، ولو لم يكن لجلالة الامام الناصر دليل على

وجود هذه الفضيلة فيه الا العفو عني وعنك لكفاء ذلك دليلا قاطعا . فكيف وقد صمم الان على الافراج عن جميع المعتقلين وكيف به وقد رضي عنا جميعا ومسح بيده الكريمة على قلوبنا واستطاع ان يضبط نفسه وعواطفه ويعاملنا معاملة الاب الرحيم ، ويطرح كل اقوال العاذلين والمهجنين، انها لقوة هائلة ما كنا نتصورها أو نقدرها في جلالته ولو كنا نعرف منها الشيء القليل لآمنا بمستقبل البلاد على يده من زمن طويل ، ومن هذه النظرة المعجزة نفهم ان جلالته لم يخسر شيئا في مقابل ما كسب من هذا الفضل بل على العكس ربح ربحا عظيما سريعا قل ان يحرزه ملك من الملوك الا في السنين الطوال ، ولقد انتصر على خصومه بهذا الفضل ان كان له خصوم حقيقيون وحولهم انصارا واحبابا وسوف يعرف انه لن يندم ابدا على هذا الغفران والتسامح. ان موقف جلالته هذا حول الخصوم امام حقيقة عقلية لاريب فيها وهي ان الحياة في حمى عفوه وتسامحه وشهامته افضل الف مرة من الخصومة معه، ولا ريب ان الاغلبية الساحقة من بني آدم لهم عقول يفكرون بها قبل ان يعملوا شيئا ، ويوازنون بين الضر والنفع كما ان الناس في كل زمان ومكان لا يفكرون في الخصومات الماضية اذا وجدوا حاضرا سليما ، وقد رأينا اثر هذه الحروب العالمية ان الاعداء صاروا اصدقاء وان الاصدقاء صاروا اعداء ، لانهم يسيرون في سياستهم على العقل والمصلحة لا على العاطفة .

ان اليابان تصير سلاحا في يد الذين رموها بالقنبلة الذرية، وزعماء اندونيسيا مدوا ايديهم لمصافحة عدوهم الاجنبي الغاصب الذي هاجمهم في منازلهم واعتدى على اشخاصهم وحاربهم وحاربوه زمانا طويلا، ولكن الطرفين رأيا المصلحة في التفاهم، فتفاهما وزال كل شيء. يا أخي ثق انه لم يكن احد من الناس يعرف صدى حلم جلالة الامام الناصر أيده الله الى هذا الرقم وان صنيعه معك حل عزائم الشاردين، واشفى صدورهم وسيجدهم وقد تراجعوا واحدا واحدا .

وسيعرف الناس جميعا ، ان هذا الامام الذي انفقنا شبابنا وجهودنا في خصومته وعقوقه سيصبح وما على ظهر الارض ، احب الينا منه . ان الانسان يقتله الاحسان حيثما كان وهل ابلغ من هذا الاحسان ، وهل يكون اليمنيون وهم ارق الناس افئدة، اغلظ الناس قلوبا، وأكفرهم للصنيع والجميل ، كلا كلا . لذلك اقول : ان جلالة مولانا الامام ايده الله لم يخسر ولن يخسر بما صنعه معنا ويصنعه مع سائر المعتقلين بل كسب كسبا كبيرا وان يوم «النصر» الحقيقي لم يكتمل الا بهذا الاتجاه الجديد الرائع .

اخي لست ادري ما اكتب وكيف اعبر عن نفسي في وسط هذه اللجة الغامرة من الخيالات والاحلام ، إن اعصابي منهارة متهالكة من الفرح والاغتباط بهذه البشرى.

فابتهل الى الله ان يحفظ جلالة مولانا الامام الناصر، وان يعز به اليمن واهلها ويقر عينه بولي عهده وسائر اخوانه السيوف الاعلام .

ولكني ارى لزاما علينا ان نعتذر الى مولانا ايده الله وإن كان اعرف بحقيقة امرنا ونوايانا ليتضح للناس وجه العذر فلا يبالغوا في اللوم والعتب، وليؤمنوا ان مولانا عفا عمن يستحق العفو ويستوجب الصفح وانه وضع الجميل في محله :

واذا الصنيعة صادفت اهلا لها
دلت على توفيق مصطنع اليد

لقد اتينا بما اتينا به في الماضي بحسن نية ، وسذاجة متناهية ، ولم يكن غرضنا الا نزيها وطاهرا وبريئا من كل ما انقلبت اليه عواقب الامور، ولكن الاخطاء التي يجب ان نعترف بها هي العقوق لولي النعمة والتجانف عن ادب التعبير والمعارضة العنيفة القاسية وقد ادى الى ذلك امران :

احدهما ما ألقى في روعنا من شدة الخوف من غضب مولانا ايده الله علينا، وانه لن يقبل منا صرفا ولا عدلا بعد فرارنا من جنة بره واحسانه، وانه لا يمكن ان يغتفر لنا هذه الزلة ، ولا يعفو عنها بأي حال من الاحوال ، فكانت طبائع

التعبير القاسي قائمة على اساس من هذه الاوهام والخواطر السوداء .

والثاني ان تفكيرنا من اساسه كان مجلوبا من السوق السياسية العربية بما فيها من جمعيات واحزاب وصحف ومحاضرات وزعماء ودجالين ممن افسدتهم ولوثت ضمائرهم الخصومات والاغراض والنزعة التجارية بمصائر الشعوب لقد تقبلنا منهم كل شيء وتحمسنا له وجعلنا لانفسنا منهم مثلا عليا وحملنا انفسنا وعائلاتنا ما لم يستطع ان يتحمله احد سوانا ، وذلك بناء منا على انهم ابرار اتقياء ، يقولون ما يعتقدون ويرونه حقا وصوابا ، وقد تبين لنا بعد ذلك ان تلك السوق السياسية موبوءة ، دنسة ، خبيثة ، ونحن يعلم الله كنا ابرياء من هذا الدنس بعيدين كل البعد عن تصور هذه الحقائق المرة .

اخي ان هذه السوق هي التي اضاعت فلسطين، وجعلتها دولة يهودية خالصة بينما كانت الشعوب تتحمس في سبيلها حماسا جنونيا ، ولما سكتت المعركة بين العرب واليهود انقلبت الى حرب اعصاب بين العرب انفسهم كل منهم يتهم الآخر ويخونه ويتربص به الدوائر ، وكان من اثر ذلك ان حدثت في سوريا ثلاثة انقلابات في اقل من عام وكل انقلاب له انصار ومؤيدون يزعمون الحق لهم والباطل على سواهم، حتى ضاع الصواب وحارت العقول

وتقوض كثير من الاسس التي يقوم عليها العربي العالم فساد الشك في كل شيء وعم البلاد العربية ما يشبه الانحلال العقلي .. الخ .

(٧) ــ واخيرا ها هم الاكثرية الساحقة من ابناء الشعب اليمني من علمائه الافذاذ ، وادبائه الامجاد ، والشباب المتعلم الناضج ، بل وسائر افراد الامة المخلصين لوطنهم وحكومتهم وامامهم .

هؤلاء هم القراء المنصفون الذين سيفهمون الكتاب، وينصفون مؤلفه ويقدرون اتعابه .

وحسبي هؤلاء قراء ، والله ولي التوفيق وهو نعم المولى ونعم النصير .

تقريظ

القاضي عبد الرحمن الإرياني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله سفن النجاة ، وصحابته ومن والاه .

وبعد فقد أسعدني الحظ بمطالعة هذه التحفة الثمينة « عبقرية الامام احمد » التي جلتها يراعة صديقي، العلامة الاديب الشاعر السيد احمد بن محمد الشامي حفظه الله صورة كاملة للمثل الاعلى لعبقرية العباقرة في العالم. اقول هذا وانا اعني ما أقوله فقد طالعت كثيرا مما كتبه الكاتبون عن زعماء عالم اليوم فوجدتهم يركزون الاشادة بزعامة الزعيم على جانب واحد من المؤهلات كمغامرة قام بها أو كرم اتصف به أو حنكة سياسية أو كفاءة حربية قهر بها الشعوب وسلب الحقوق ، ولم ار فيما رأيت — على كثرته — عبقرية تعددت مقوماتها وتشعبت مناحيها فالتحقت بعبقريات الخلفاء الراشدين والائمة المجددين كعبقرية الامام الناصر ايده الله. ولا غرو ف « هذا السراج شواظ تلك النار » ، وهذا القبس منبثق

من تلك المشكاة ، وهذا الفرع الباسق هو من تلك الدوحة النبوية السامقة ، ولقد هز مشاعري ما استعرضته فيها من اخلاق نبوية ، وشمائل علوية ، وملأني فخرا واعتزازا ، فأُحببت ان اساهم في اداء هذا الواجب ، وطالعت الكتاب مطالعة الناقد المعقب الذي يريد ان يزيد ويريد ان ينقد ولكن هيهات والمؤلف قد سد امامي منافذ النقد، وجاء كما عهدته مجليا، وما من ريب في ان مكان القول ذو سعة خلا ان الكاتب قد ابرز للقراء صورة تقريبية لهذه العبقرية الكثيرة المناحي التي يحتاج استيعابها الى اكثر من كتاب وحسبه ذلك .

فلا عجب اذا ان بلغ اعجابي بهذه العبقرية حدا اثار خامد القريحة التي بعد عهدها بالقريض فجاءت بالقصيدة التالية ، قياما بالواجب ، وتقديرا للكاتب :

قف أيها الفكر تنظر نور أخلاق
يشع من فلكي حبر وأوراق
وسرح الطرف في غناء وارفة
من المكارم تبدو ذات ايراق
واستنشم الطيب من أنوار ناجمها
تظفر بعرف بريح المسك عباق
وانظر الى شمخ في الافق سامقة
من البطولات يعيى دونها الراقي

حدق تجد ههنا العلياء ماثلة
يكبو على جانبيها كل مهاق
هنا الزعامة فازت بابن بجدتها
فحاطها بيدي حزم واشفاق
هنا الامامة والسلطان قد قرنا
في كف أقدر فتاق ورتاق
هنا الجلال هنا العرفان قد جمعا
هنا منابع احسان واغداق
هنا الكمال هنا الايمان بينهما
قد اشرق الملك يزهو أي اشراق
هنا ترى كل ما ترضاه من شيم
قد كوّن الله منها خير سباق

***

ناهيك من عبقري لا نديد له
في سابقين وحضار ولحاق
اخلاقه نبويات مقدسة
وفعله لزكاها خير مصداق
فطأطىء الراس اكبارا لمانحها
وقل تباركت من بار ورزاق
وانظر تجدها نسيجا « عبقريته »
لوحدها برئت عن كل امحاق

زعامة الدين والدنيا قد اجتمعا
فيها وطيب أفاعيل وأعراق
وفيض حلم وعرفان قد امتزجا
بحكمة من سديد الرأي غيداق
وحنكة أثمرت حزما ومرحمة
وعدل ملك الى الانصاف تواق
وعفو شهم كريم لا يكدره
منّ ولا يقتفيه أي ارهاق
حسبي وحسب بني قومي به ملكا
يسوسنا بهدي دين واخلاق
شريعة الله والقرآن شرعته
وهديه هدي اصلاح واعتاق
ماذا نريد ؟ وهذا العدل منتشر
والحكم فينا لشرع الواحد الباقي
شرع مقننه الرحمن واضحة
أعلامه بارئا من كل اغلاق
قالوا الحضارة تدعو أن نجافيه
كيلا يقال لنا لستم بسباق
نصوصه عقبات في مناهجنا
تدور ما بين تقييد واطلاق
وبعض احكامه ليست موائمة
لها وكم فيه من غل وميثاق

تحول بين بني الدنيا وما طلبوا
للعيش من متع فيها وارزاق
قلنا كذبتم فشرع الله خالدة
أحكامه صالح للمجمع الراقي
والدين اوسع مما تزعمون مدى
وهديه لهوانا خير ترياق
يدعو الى كل ما فيه الفلاح لنا
رفقا ويصرفنا عن كل ايباق
هيهات ما بين تشريع الحكيم لنا
وبين تشريع ضلال ومراق
يحكمون هواهم في مصائرنا
ويعبثون باعراض وأعناق
والفرق بين الذي نقفوا وما تبعوا
كالفرق ما بين مخلوق وخلاق

***

مولاي فافخر على كل الملوك بها
واصلح بها كل نهاق ونعاق
فانك اليوم دون الكل حارسها
من أن تمد اليها كف محاق
وهاكها درة وافتك شاهدة
على ولاء محب غير مذاق

جاءتك خجلى على النعماء شاكرة
لما جعلت من الاحسان اطواق

***

ايه صفيّ الهدى لله ما نظمت
كفاك من لؤلؤ بالحق براق
جلوت من عبقريات الامام لنا
عرائسا ذات احساب وأعراق
لله در يراع أنت حامله
ومقول بحلال السحر نطاق
لما وجدت مكان القول ذا سعة
جريت فيه بايجاف واعناق
اديت عنا ولم تبخل بطائلة
دَيْنا فجوزيت عن بذل وانفاق
ودام فينا امير المؤمنين على
كر الجديدين اصباح واغساق

تعز ـ صالة | ١٠ صفر سنة ١٣٧٤ هـ
عبد الرحمن بن يحيى بن محمد الارياني
تجاوز الله عنه

تحول بين بني الدنيا وما طلبوا
للعيش من متع فيها وارزاق
قلنا كذبتم فشرع الله خالدة
أحكامه صالح للمجمع الراقي
والدين اوسع مما تزعمون مدى
وهديه لهوانا خير ترياق
يدعو الى كل ما فيه الفلاح لنا
رفقا ويصرفنا عن كل ايباق
هيهات ما بين تشريع الحكيم لنا
وبين تشريع ضلال ومراق
يحكمون هواهم في مصائرنا
ويعبثون باعراض وأعناق
والفرق بين الذي نقفوا وما تبعوا
كالفرق ما بين مخلوق وخلاق

***

مولاي فافخر على كل الملوك بها
واصلح بها كل نهاق ونعاق
فانك اليوم دون الكل حارسها
من أن تمد اليها كف محاق
وهاكها درة وافتك شاهدة
على ولاء محب غير مذاق

جاءتك خجلى على النعماء شاكرة
لما جعلت من الاحسان اطواق

***

ايه صفيّ الهدىٰ لله ما نظمت
كفاك من لؤلؤ بالحق براق
جلوت من عبقريات الامام لنا
عرائسا ذات احساب وأعراق
لله در يراع أنت حامله
ومقول بحلال السحر نطاق
لما وجدت مكان القول ذا سعة
جريت فيه بايجاف واعناق
اديت عنا ولم تبخل بطائلة
دَيْنا فجوزيت عن بذل وانفاق
ودام فينا امير المؤمنين على
كر الجديدين اصباح واغساق

تعز ـ صالة | ١٠ صفر سنة ١٣٧٤ هـ
عبد الرحمن بن يحيى بن محمد الارياني
تجاوز الله عنه

مولاي فاخر على كل الملوك بها … واصلح بها كل نهاق ونعاق
فانك اليوم دون الكل حائزها … من أن تمد إليها كف محاق
وهاكها درة وافتك شاهدة … على ولاء محب غير مذاق
جاءتك تجلى على النعماء شاكرة … لما جعلت من الإحسان أطواق

إيه صفي الهدى لله ما نظمت … كفاك من لؤلؤ بالحق براق
جلوت من عبقريات الإمام لنا … عرائسا ذات أحساب وأعراق
لله درك يراع أنت حامله … ومقول بجلال السحر نطاق
لما وجدت مجال القول ذا سعة … جريت فيه بإيجاف وإعناق
أديت عنا ولم تخل بطائلة … دينا فجوزيت عن بذل وإنفاق
ودام فينا أمير المؤمنين علي … كر الجديدين إصباح وإغساق

تعز — صالة ١٠ صفر سنة ١٣٧٤ عبد الرحمن بن يحيى بن محمد الارياني
تجاوز الله عنه

(١) نهاية تقريظ القاضي عبد الرحمن الارياني بخطه .

الفهرست

انتهى طبع هذا الكتاب في اليوم السابع من تشرين اول (اكتوبر)
١٩٦٥ على مطابع مؤسسة الانتاج الطباعي في بيروت ٠